العقل العربي

معالم في طريق التحرير

الدكتور/ عبدالمعطي سويد





مؤسسة الانتشار العالمي
للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
ت: ٠١٠٢٧٧٢١٢١٣
E.mail: Alentshar48@hotmail.com

المواد المنشورة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولاتتحمل
مؤسسة الانتشار العالمي أية مسؤولية عما ورد في هذا الكتاب

الكتاب: العقل العربي معالم في طريق التحرير

الكاتب: الدكتور عبد المعطي سويد (سوريا)

الناشر: مؤسسة الانتشار العالمي

الطبعة العربية الثانية: القاهرة ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢٢٣١٠م

تصميم وجرافيك الغلاف: المهندس خالد نورالدين

الجمع والإخراج:وحدة الكمبيوتر بالمؤسسة

- "ليس هدف هذه الأوراق نسْف قواعد سلطة سياسية ولا إزالة قمع وطغيان سياسيين، بل تغيير طرائق التفكير والتأكيد على تلاحم العقل والوجود".

- ما لم يعمل العقل العربي على إزالة رواسب التفكير الأسطوري والخرافي، وتحييد ثقافة النص، والبطانة الوجدانية، وسلطة المجتمع الأبوي والانتماءات الدموية، والطائفية، والمذهبية، فلن يتسنى لهذا العقل العيش في العالم المعاصر، ولا استيعاب الحداثة، وإنتاجها.

تصدير عام

- إن تاريخ الفكر العربي-الإسلامي ليس سوى تاريخ العجز، وعدم الجسارة في مواجهة العالم مواجهة عقلية مستقلة عن الماضي والموروث أو تحييد لهما.

- إن صراعاتنا الفكرية، صراعات المطلقات والأفكار القصية، وليست حول تأكيد الإدراك النسبي للأمور، ولم ندرك بداهة: أن السعي نحو المطلق وعوالم الغيب عبث لا طائل تحته.

- تحكم تفكيرنا-على العموم- أنماط فكر تقليدية،وعواطف وانفعالات وأهواء وغرائز بدائية، وانتماءات، تعيش في القاع الفكري، ولا نحاول تحييدها عند النظر، والحكم على الأمور.

- تحايلنا على التقدم، والحداثة بالتأويل، وسوء الفهم، بالتوفيق والتلفيق، ولم نجرؤ على خلق حداثة، وتقدم مقابلين.

- إن تحرير العقل أصعب وأشد عسراً من تحرير الشعب من الطغيان السياسي، وأشد تعقيداً من إزالة الطاغية المتربع على عرش السلطة.

- الثورات تزيل الطغاة، ولكنها لا تغير أساليب التفكير.

• لقد جهلت الأصوليات الدينية وغيرها بأنها إذ ترفع عقيرتـــها ستواجه أصوليات أخرى، ولتكن علمانية، أوطائفيـــة أومذهبيـــة، أو أيديولوجية، أوعرقية ...الخ، وكذلك جهلت العلمانية وغيرها من الأصوليات اللادينية. إن شوارعنا العربية تنزع بطبيعة تكوينـــها الفكري والوجداني،إلى التعاطف مع الأصوليات الدينية خاصـــة، أوأصوليات أخرى ذات غطاء ديني فتنقلب هذه المواجهات إلـــى دوائر جهنمية مغلقة.

• الأصولية الدينية قد تصل إلى السلطة، وتدمـــر كـــل شـــيء، ولكنها لا تبني حضارة.

• "إن المتخيل الديني المستنفر، والهائج والذي يهيمن على عقول الشبيبة"(١) -المتعلمون منهم وغير المتعلمين- لابد من الحـــوار معه، بعد محاولة تحييد مطلقاته، لتصحيح مساره العقلي؛ ليكـــون متوافقاً مع الروح العلمية النزيهة، والتي مـــن أهـــم شـــروطها: الموضوعية، والحداثة العقلية، ولابد من لفت أنظـــاره إلـــى أن الاستمرار في السير بحسب مقولاته المطلقة،ســـيؤدي بـــه إلـــى الهاوية على صعيد حياته الفردية، والفشل الفردي في مواجهـــة مشكلات الحياة، وسيؤدي بالمجتمع إلى الانقراض.

• لابد من مواجهة المناخات الأيديولوجية السائدة في العـــالمين العربي والإسلامي: المناخ السائد في عقـــول النـــاس، والمنـــاخ المسيطر لـــدى الســـلطات السياســـية، وأجهزتـــها الإعلاميـــة، والتربوية.

• إن "جماهيرنا" بحفاظها على المقدسات كما هي، كما رســـمتها مدونات تاريخية متحيزة، وبحفاظها على التراث الأصفـــر، دون

إجراء فحص وتمحيص ونقد عقلي، تشكل خطورة على الحاضر والمستقبل، أشد من خطورة السلطات السياسية، وأيديولوجياتها الفقيرة في المعنى والدلالة.

- كثيراً ما تمالئ السلطات السياسية -للحفاظ على بقائها- عقول هذه الجماهير، وتتبنى أفكارها، وعقائدها، والنتيجة: تآمر الجميع، وتواطؤ الكل؛ كي يصبح العقل، والتقدم هما الضحية،فيزداد العمى، والاستلاب، وتستمر الحضارة المعاصرة في هيمنتها على وجودنا، مقابل إصرارنا على كل ما هو ماض وعتيق، ومقابل زعمنا: أن لا هوية إلاّ بالحفاظ على التراث الرابض تحت غبار الأزمنة والأيام.

- بين الجماهير والعقل صراع أزلي، يجب أن يحسم يوماً لصالح العقل.

- في ظل الأنظمة الشمولية، والفردية، والدكتاتورية يحصل تغييب كامل للنشاط العقلي الحر، ويتم هذا التغييب بواسطة الأجهزة: الإعلامية والتربوية والأمنية؛ وتعلو نتيجة ذلك البطانة الوجدانية، وتتكشف سلطة العاطفة والانفعال والهيجان، وتتجلى غيبوبة العقل، لتسيطر سيكولوجية خاصة، وفي لحظات معينة تعبر الجماهير فيها عن تركيبها: الديني-الأسطوري- وتعلقها(الكاريزمي) بالشخص، وتتجلى هذه اللحظات أوينكشف الغطاء عن سيكولوجية الجماهير لحظة فقدان الزعيم الأوحد، والرئيس المفدى، والمليك المعظم والأب القائد، ومُلهم الشعب والجماهير، ومعلمها...الخ، ولنتأمل في أقرب تاريخ لنا الجنائز السياسية في عالمنا العربي المعاصر للحداثة:

- جنازة الرئيس جمال عبد الناصر (مصر) (١٩٧٠)
- جنازة الملك الحسن الثاني (المغرب) (١٩٩٩)
- جنازة الملك حسين (الأردن) (١٩٩٩)
- جنازة الرئيس حافظ الأسد (سورية) (٢٠٠٠)

(انظر الملاحق حول سيكولوجية الجماهير)

حيث بلغت الحالات الهستيريا لدى الجماهير درجة عاليا، عبرت عن نفسها بالصياح المطلق، والعويل والبكاء، والغيبوبة والانتحار، وتجلى فيها فكر الجماهير، في بقع عربية مختلفة في حالة فكرية وجدانية، ولحظة جنونية متشابهة.

• هُزم العقل في النصف الأول من القرن العشرين الأوربي لحظات تولي الفاشية والنازية، وهُزم هزيمة نكراء في الحربين العالميتين: الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، وعاش هزيمة هادئة أوهزيمة سلمية، أثناء الحرب العالمية الباردة، وتحاول العولمة المعاصرة نثر أشلائه، وبعثرتها والقضاء على البقية الباقية منه؛ لحساب التكنولوجيا، ولإبداعيَّتها، ولحساب العقل التكنولوجي.

• لا جدوى في حرق المراحل في مسألة التقدم العقلي، بل لابد من المرور بمراحل هذا التقدم، بتأن، وإعمال عقل في التراث العقلي العالمي مستأنسا به وناقدا له في آن.

• ليس الحديث عن العقل المستقل، والدعوة إليه يعني النظر إليه على أنه البعد الوحيد في الإنسان الذي يوجب التوقف عنده،بل إن الأمر كله يعني ترتيب الأولويات، أي أن الأولوية المطلقة التي تهدف إليها هذه الأو عمل العقل،ومن ثم تأتي

مراتب الوجود الإنساني: الجسد، فالروح، بحيث يتم الترتيب: عقل، جسد، روح.

•ليس المراد إلغاء المطلق الديني لحساب مطلق آخر، وهو العقل،بل المراد تحييد المطلق الديني وغيره من المطلقات، وتنصيب العقل ومعاييره كسلطة عادلة، وسلطة عقلية مجتمعية.

•يقول يورغن هابر ماس: ((إن المركزية الغربية ليست في الاستخدام الأمثل للعقل وتوظيفه إنسانياً،بل في الاستخدام الضيق والمحدود، والقاصر لهذا العقل)).(١م)

•إن جماهيرنا-مع احترامنا الكامل لجوهرها الإنساني- مفلسة إفلاساً كاملاً على صعيد القيم والأخلاق، والمعايير العقلانية، كما أنها لا تستطيع-ما لم تتبنَّ مشروع العقل المستقل، وإزالة العفونة السياسية، والإطاحة بأصحاب القرارات الرعناء التي تصيب حياتها.

المقدمة

الساحة العربية والشارع العربي يقاومان كل فكر عقلاني مستنير والشرائح العظمى من شعوبنا غارقة في تقاليد فكرية، شعرية خرافية تعيش في أعماق المجهول ترد معرفته إلى عوالم الغيب، تحاكم الأمور بمنطق الانفعالات والعواطف الجامحة، والحدوس الشخصية،أو بناء على تجارب فردية محدودة، أو أحكام مسبقة.

يبقى الفكر العقلاني معزولاً في قاعات صغيرة ذات طابع أكاديمي أو يظل وسط المدارس مقتصراً على ترديد تواريخ الفكر والفلسفة، دون اتباع منهج تفكير، أو تدريب يستأنس بتجارب المفكرين والفلاسفة أنفسهم.

ومعلوم أن تيارات في مجتمعاتنا تكتسي رداءً دينياً تمارس الضغط، والإرهاب لتفرض سلطتها، تحت غطاء سلطة النص الديني وهي تجهل فحواه، وأبعاده، إنها تيارات دوغمائية، لا تهادن حول ثوابت وضعتها لنفسها، لا تفسح المجال للحوار فيها، أو إعمال العقل في طبيعتها. كذلك لا تقل التيارات "الليبرالية" تطرفاً، وإرهاباً عن تلك التيارات.

إننا نعيش ثقل الماضي، وعبء التراث. ونحمل هذين الثقلين على كاهلنا، نتصارع، ونحارب من أجل قضايا عتيقة لا قبل لنا فيها، ولم نكن أطرافاً فيها.

فما الذي يعنينا من قتل هذا الإمام أو ذاك منذ قرون خلت؟! وما الذي يجدي نفعاً أن نتصارع من أجل معارك تاريخية، لا عبرة لنا فيها، ولم نعشها، أو نعاصرها؟!

إن واقعنا العربي، واقع مضلل، وظواهر الأمور في الحياة العربية، ظاهر المدن العربية أو ضواحيها، من عمران، أشبه "بمدن الملح"، وظاهر هذه الحياة هش آيل للسقوط، ونعيش الحداثة الشكلية، وهي حداثة أفخاخ، ومصيدات تعمينا عن مسألة جوهرية، أي: إزاحتنا بقصد، أو بغير قصد، لقدرة العقل المستقل لصالح قوى فكر ضعيف، ركيك.

الفقراء فينا هائمون على وجوههم بحثاً عن رغيف الخبز، لا يعنيهم الفكر العقلاني أو الإبداع، والتجديد، والحداثة، والأغنياء فينا غارقون في فكر رجعي عقيم.

الخلاصة إن السلطة السياسية، والشارع العربي بأغنيائه وفقرائه، مسؤولان عن عدم تقدم العقل العربي، ودخوله الجاد في عقل الحداثة.

د.عبد المعطي سويد
الشارقة صيف ١٩٩٩م

تمهيد: ما قبل الهجوم على العقل

كان التفكير الأسطوري في حضـــارات الشـــرق القديـــم، أدنـــاه وأقصاه، حيث حاول الإنسان القديم، في الشـــرق (بـــلاد الرافديـــن، مصر، سورية القديمة، الجزيرة العربية وشمال إفريقيا) يفهم العـــالم بناء على منطق أسطوري يفسر بحسه مظاهر الطبيعة والكون وحياة الإنسان.

وارتبطت حياته الاقتصادية من زراعة، وحصاد وانتظار ميـــاه الأمطار، وفيضانات الأنهار ارتباطا وثيقا بإيمانه بقـــوى أســـطورية خارقة تغدق على حياته ثمار العيش، أو تداهمه بشظفه.

كان الإنسان القديم يتصور بخياله أن هناك صراعا دراميا بيـــن قوى الطبيعة، فإذا غابت الشمس، فذلك لأن الظـــلام جـــاء وغلبـــها وهزمها، وبالتالي تهزم الشمس فجر كل يوم الظلمة، ويبدأ النـــهار، وعندما تنتهي السنة تكون قد هزمتها السنة الجديدة ...وهكذا"(٢).

وكان المصريون القدماء ينتظرون فيضان النيل لسقي الأراضي، ويتصورون أن الآلهة هي التي تفيض بقواها المياه، وكذلـــك الأمـــر بالنسبة لأصحاب حضارات الأنهار القديمة.

الأسطورة تعريفا، تقص قصة خارقة، وحكاية خرافية يصنعـــها الخيال الإنساني فردا كان أم جماعـــة، والقصـــص التـــي تقصـــها الأسطورة ذات طابع مقدس مرتبط بالزمن الســـحيق، إنـــها تحـــاول رواية (علة) كل ما يحدث في العالم، وكل ما يصـــدر مـــن أحـــداث الكون، والحياة البشرية(٣).

النقطة المهمة في هذا الموضوع هو تفسير مبدأ السببية (أو العلية) العقلي تفسيرا غير علمي، أوأسطوري.

يرى "فريزر" أن الأساطير تفسيرات مغلوطة لظواهر الحياة والكون والإنسان أو العالم الخارجي، وتفهم كلمة مغلوطة، أنها ليست تفسيرا علميا مقنعا للعقل الإنساني(٤).

في هذه الفترة الزمنية التي تعود إلى ما قبل ظهور الأديان السماوية في الشرق والتي اصطلح المؤرخون على ترقيمها الذي يعود إلى(٣٥٠٠ق.م)(٥).

كانت الأسطورة تسد رمق العطش، والتواقين إلى كشف غوامض الحياة البشرية، وكانت محاولة لخلق نظام، حيث لا نظام، ورسم لوحة مزيج ألوانها من الخوارق، وشطحات الخيال.

كذلك كانت الأسطورة تقوم بوظيفة تفسير الأسباب والعلل كما قيل منذ لحظة، بصورة قصة تختلف في شكلها ومضمونها، ومنطقها الخارجي والداخلي عن التفسير المنطقي الذي نعرفه،وتختلف عن التفسير العلمي الذي ندرسه.

١-العقل، وبداية الهجوم ضده:

أول هجوم على العقل في التاريخ

أ- على الضفاف الأخرى من البحر المتوسط، وفي القرن الخامس قبل الميلاد، ظهر ثالوث فلسفي عظيم، لانزال نقرأ فلسفته، وآثاره. أقصد:"سقراط" "أفلاطون" "أرسطو"(٦). حيث بدأ التفكير المنطقي، والفلسفي يأخذ مجراه، عندما وضع أرسطو مبادئ المنطق الصوري، وكان "سقراط" قد شرع باتباع الأسلوب التفكيري الحواري، ووضع الطريقة الحوارية للكشف عن الحقيقة ومناقشة المفاهيم، والقضايا الوجودية. وسجل أفلاطون حوارات أستاذه سقراط وأضاف عليها نظراته الفلسفية الخاصة في الأعمال الأفلاطونية.

إذن بدأ التفكير العقلي ينبت في الحياة اليونانية، في شكل حوارات فلسفية معمقة (تلاميذ أفلاطون، وأرسطو) وعلى شكل حوارات مع رجل الشارع في أحياء أثينا، (حوارات سقراط مع شبيبة أثينا في قضايا الحياة، الكون، والوجود).

ولكن هذا الجو الفلسفي والمنطقي والحواري في بطحاء أثينا خلق ميولا مضادة، وأوجد أرضية للهجوم على العقل، وخاصة من قبل رجال التفكير الأدبي.

كذلك هاجمت السلطة السياسية في أثينا، وهاجم رجل الشارع على لسان أحد كبار كتاب المسرح اليوناني، الطريقة السقراطية في التفكير، والقائمة على إثارة قضايا تمس حياة الناس، فأراد "سقراط"

تصحيحها حسب طريقة تفكير ناقد، وأراد أيضا تكوين المفاهيم الصحيحة في عقول الناس الذين كان يحاورهم.

لقد سخر "أرسطوفان" في مسرحية (الضفادع) من شخصية سقراط، وأثار غضب الجماهير ضد التفكير السقراطي الناقد، وتألب الناس ضد "سقراط"، وطالبوا بمحاكمته، فقدم رجل العقل إلى المحاكمة، وبذلك سجل تاريخ الفكر الإنساني أول هجوم على العقل.

ففي محاورة"أوطيفرون" يقدم أفلاطون شخصية سقراط على أنها شخصية تنشغل بالإلهيات، فعندما يوجه"أوطيفرون" سؤالا إلى سقراط عن الكيفية التي يفسد بها الشباب، يجيب قائلا:"إن المدعي يقول إنني شاعر، أو صانع آلهة، وإنني مبدع لآلهة جديدة، ومنكر للآلهة القديمة".

ويرد"أوطيفرون" قائلا: ((إن المدعي يعلم أن هذه التهمة تلقى استحسانا وقبولا من العالم برمته))(٧).

تضرب السلطة السياسية رجال الفكر حينما يتعرض هؤلاء إلى عقائد الجماهير بالنقد والتقويم، ويجري تملق السلطة للجماهير، بإطاعة عقائدها، وتقوم السلطة كذلك باستئصال المفكرين الذين ينتقدون السلطة، ولكن تجد السلطة حجتها في أنها تعمل كل ذلك لمصلحة الناس.

وإذا أدركنا أن الجماهير لا تعول على العقل، في النظر إلى الأمور، وأن السلطة تعمد إلى الاعتماد على روح الجماهير، في الهجوم على العقل ورجاله، فالنتيجة هي: اتفاق بين السلطة والجماهير على ضرب محاولات العقول الناقدة، وصاحبة تقويم الاعوجاج في النظر، والممارسة.

لقد أدين "سقراط" وحكم عليه بالموت تجرعا للسم، ونفذ سقراط حكم الإعدام احتراما لقوانين أثينا، وبذلك سجل لنا التاريخ أول تراجع، وإذعان لرجل العقل أمام الجماهير، وقوانينها الجائرة، والمقاومة لكل تغيير لطرائق التفكير.

ب- حذا الرومان حذو اليونان في بناء حضارتهم، وشكلت الثقافة اليونانية جوهر الثقافة الرومانية، وامتزج التفكير الروماني بالأسطورة، والعقل السياسي، فكان لدى الرومان أساطيرهم في الحب، والجمال، والطبيعة والحياة والكون(جوبيتر)، و(سارتون) و(لونا)، و(سيريز) و(فلورا) و(فينوس)...الخ. ووضع الرومان نظامهم التشريعي بناء على عقل سياسي متطور. أما بالنسبة إلى العقل الفلسفي أو النشاط العقلي الفلسفي المستقل، فلم يكن الرومان على شيء مبدع في هذا المجال.

٢-نكسة العقل المستقل أمام التفكير الوحداني:

(اليهودية-المسيحية-الإسلام)

أ-اخترع الفراعنة في عهد (إخناتون) فكرة التوحيد والواحدية في السماء والأرض، وبعبارة أخرى، مال الفراعنة ميلا شديدا نحو فكرة التوحيد، وخاصة في الإلهيات، ولكن سرعان ما انسحب هذا التفكير الوحداني الإلهي نحو نمط تفكير إنساني أرضي، وبعبارة أخرى اختلطت السلطة الإلهية الواحدية بالسلطة الإنسانية المتركزة في شخص واحد، وأصبح فرعون إله الأرض والسماء.فقال فرعون ((أنا ربكم الأعلى)).

ب-جاء العبرانيون في القرن الثاني قبل الميلاد بمفهوم خاص للوحدانية في التفكير الديني، وانكشف للنبي موسى الإله الواحد في طور سيناء، وتمسك اليهود بهذا المفهوم تمسكا شديدا، وانسحب أيضا حسب ما يعتقد اليهود هذا المفهوم الإلهي الواحد والوحيد، إلى قوم إسرائيل، فآمن الشعب بأنه شعب وحيد، مكلف بدعوة البشر إلى الإيمان بالإله الواحد، وانعقد الحلف المقدس بين الإنساني والإلهي. بين يهوه ١- yhwh- - وبني إسرائيل،وبذلك انسحب أيضا المفهوم أو التفكير الإلهي الواحد إلى التفكير الإنساني، فأصبح هذا الأخير الواحد، موحدا في الفكر والوجود، وبذلك تجسدت ولأول مرة في التاريخ فكرة الواحد والواحدية، والوحدانية في التفكير في الشرق القديم، وتأثرت البنية السياسية منذ ذلك التاريخ في هذه المنطقة بفكرة "السلطة السياسية المطلقة" التي يمسك بها عادة شخص واحد، بقناع الملك، والسلطان، والخليفة، والرئيس والحاكم المطلق.

لقد انتقد القرن الثامن عشر الأوربي (ما يسمى بعصر التنويـــر) المفهوم الوحداني دينيا وسياسيا، واعتبر أصحاب العقل في ذلك القرن أن المفهوم الواحدي هذا، لا يقبله العقل؛ لأن هذا العقل رغم ميله إلى التوحيد، لا يرضى عن اختزال العقل البشري إلى مبدأ واحد. (انظـو نقد الفيلسوف اليهودي اسبينوزا خاصة)(٨).

والخلاصة: اكتسبت الحاكمية السياسية طابعا مقدسا انطلاقا من التفكير الديني المنصب أساسا على فكرة الواحد الإله المقدس. ولـــم يغير اليهود الاعتقاد الفرعوني بالحاكمية المؤلهة هذه: إن هناك علاقة شبه وثيقة بين الملك (داوود)، والإلـــه يـــهوه، يقـــول (داوود) فـــي المزامير (الكتاب المقدس-العهد القديم): ((..أما أنا، فـــأقدس ملكـــي على جبل صهيون، جبلي المقدس)).

فطـــابع القداســـة مرســـوم أبـــدي علـــى الأرض، (الجبـــل المقدس)،(الأرض المقدسة)...الخ. يقول يهوه لداوود ((سوف لن أنسى القانون. أنت ابني. لقد ولدتك اليوم))١١(psaum (٩).

٣-بذور التعددية في التفكير الغربي الحديث:

أ- الأصول الوثنية(ديمقراطية أثينا-ديمقراطية روما)

ب- المسيحية (الوحدانية والتثليث)

أ) أزاح عصر النهضة الأوربية التراث الديني المسيحي الذي كان ينتمي إلى العصور الوسطى المسيحية في الفكر، ونمط الحياة، واستعاد في سياق تاريخي جديد عصر النهضة، نمط التفكير الوثني، وعمل على إحياء الآداب اليونانية الرومانية التي حملت في تضاعيفها تفكيرا يختلف بالطبيعة عن التفكير الديني المسيحي.

ب) قالت الفقرة السابقة أن عصر النهضة الأوربية أزاح التراث الديني، ولم يقل عمل على الإلغاء التام للعقيدة والفكر المسيحي.

والمعروف أن المسيحية خرجت تاريخيا من الشرق(فلسطين)، وهي عقيدة تقوم على (التثليث) أي الإيمان بإله يحمل في باطنه أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس. ولقد هيمن التفكير الواحدي لدى الشرقيين حيث غلبت عندهم فكرة أو عقيدة الطبيعة الواحدة لشخص المسيح، ولدى الغربيين الطبيعة الثنائية للمسيح، وحصل الانشقاق العظيم بين الشرقيين والغربيين، أو بين نمطين من التفكير: التفكير الواحدي، والتفكير التثليثي (المتعدد). وكان ذلك إثر المؤتمر اللاهوتي Nice,e- Constantinople حوالي القرن السابع الميلادي. (الانشقاق بين الكاثوليك-الأرثوذكس) لقد ورث التفكير الغربي (أوربا الغربية) التفكير التثليثي- أو التفكير التعددي.

خلاصة الموضوع:

حمل الفكر الوثني اليوناني والروماني والفهم الغربي للعقيدة المسيحية بذور "التفكير بالمتعدد" وهذا ما شكل الموروث القديم للعقل الغربي، فورث بذلك "تعددية أنماط التفكير".

٤-وفي النصف الأول من القرن السابع الميلادي ظهر الإسلام

ثالث الأديان الإبراهيمية، ونزل الإسلام ديناً ودولة، ويحمل مشروعاً حضارياً، يبني عقيدته على الإيمان المطلق بالله لا شريك له وعلى الإيمان بأن الإسلام رسالة للعالمين، والمسلمون هم بالتعريف الأخلاقي خير أمة أخرجت للناس، والإسلام بالإضافة لكونه عقيدة، وشريعة هو ثقافة بُنيت ثقافته على النَّص، وبذلك تنطلق من العقيدة، ما يسمى بثقافة النص، وكل ما سيبنى لاحقاً من ثقافة بالمعنى الإنثربولوجي، سيقام في حدود النص القرآني. ليس من الموضوعية أن ننكر دعوة القرآن الكريم المسلمين إلى إعمال العقل ومن الحكمة أن نذكر أن القرآن الكريم يذكر كلمة العقل في عدة مواضع بلغ عددها(٤٩) آية قرآنية كريمة. وكذلك يدين القرآن الكريم التفكير الأسطوري. وناعياً أولئك الذين يقتدون ((بأساطير الأولين))، ويهتدون.

ولكن التفكير العقلي الإسلامي محدود بحدود ما أنزل الله، وفي حدود النص، والعقل في هذا السياق ليس مستقلاً تمام الاستقلال عن

النص، بل هو مقيد بحدود النص، وتفسيراته، وتأويله الذي لا يعلمه إلاّ الله، والراسخون في العلم.

أعطى الإسلام مساحة للتفكير بآلاء الكون. (عالم الغيب والشهادة) ولكن بدافع الدلالة، والبرهنة المشخصة على وحدانية الله، وقوته، وعزته، وصدق دعوة النبي محمد (ص)، فالعقل هنا أداة دفاع عن العقيدة، وأداة تبرير لحكمة الخالق، وليس أداة للاستقلال عن النص.

لقد اتخذت الاتجاهات السلفية في الإسلام هذا الموقف المحدد للنص إزاء النشاط العقلي المستقل، لتعمل هذه الاتجاهات على تنحية النشاط العقلي لحساب النشاط النقلي، فسادت ثقافة النص، وتغلب النقل على العقل المستقل طوال تاريخ الفكر الإسلامي.

القسم الأول

الهجوم على العقل

أ-الهجوم على العقل في الثقافة العربية

بداية الهجوم على العقل في الثقافة العربية-الإسلامية

وحد النبي محمد (ص) في عهده بين القبائل، وجعل منها (أمـــة) بعد أن آمن بوحدانية الله. فالله واحد والأمة الإسلامية واحدة، وبذلـــك ترتبط الأسباب السياسية وممارستها، والأسباب الروحية وممارستها.

وكان القرآن الكريم قد وجه نقدا حادا للأيديولوجية الوثنيـــة فـــي العصر الجاهلي والتي يمثلها كفار مكة، وأهلها، وتجارها، ورجـــال أعمالها، كل أولئك كانوا قد استنجدوا بعقـــائد الأقدميـــن، ووجـــدوا ضالتهم بالتعلق الوثيق بالحياة الدنيا واعتبروا موقفهم هذا لا يخلو من "واقعية وعقلانية".

لقد كان الجاهليون (أبو لهب، وأبو جهل، وأبو سفيان-رجـــالات مكة) معتادين على نظام خاص من التفكير، وآلية خاصة فـــي فـــهم العالم الأرضي، ويربطهم هلاك الدهر، وتربطهم المـــودة الشـــديدة-التعلق الوجداني-التي كانوا يحملونها للحياة العاجلة - فذروا الحيـــاة الآجلة، وكانت هذه الآلية العقلية-الوجدانية تحركها العادات القديمـــة-وعقائد الآباء والأجداد وقد وجدوا آباءهم على أمـــة، وظلـــوا علـــى آثارهم مقتدين، ومهتدين.

لقد جاء القرآن بعقلانية مضادة، تقوم على الإيمان بالعالم المـــادي المحسوس، وعلى الإيمان بعالم الغيب، لقد رأى النبي محمد (ص) أن موقف الجاهليين يتصف باللاعقلانية والوهم، وبالتعلق الدموي بالحياة الدنيا، وهو موقف عبثي لا معقول.

والواقع كان موقف المشركين "عقلانيا من نوع خـاص" بمعنـى عدم قبول فكرة العالم اللامرئي عالم الغيب وكان موقف النص الديني القرآني أيضا عقلانيا من حيث عدم إهماله لمطالب عالم الغيب، بـل لقد اعتبر النص عالم الغيب هو جوهر هـذه العقلانيـة الإسـلامية الجديدة، وهي قاعدة الإيمان، ويجب أن ينطلق الإيمان منه، (الذيـن يؤمنون بالغيب).

وأن العالم أو الحياة الدنيا، هما معبر و(برزخ) للحيـاة الآخـرة، وقـد انتقـد القـرآن الكريـم أولئـك الذيـن (يؤثـرون الحيـاة الدنيا).(الأعلى١٦).

ظل كثير من أبناء قريش أوفياء -بعد إعـلان النبـي لدعوتـه الجديدة- لعبادتهم القديمة، وعاداتهم الفكرية الموروثة، وكـانت قـد رسبت الروح الوثنية لدى الكثير من أبناء القبيلة، وغيرها من أبنـاء القبائل الأخرى في الجزيرة العربية، وبعد وفاة النبـي(ص) نشـبت الصراعات القبلية، تحركها دوافع اقتصادية، وعصبية قبلية(حـروب الردة)، وظهرت كذلك الصراعات على السلطة، وقد عبرت حـروب معاوية ابن أبي سفيان عن ذلك الصراع، وتجسد الأمر كله في (الفتنة الكبرى) على حد تعبير "طه حسين" وحصل الانشقاق العظيم بين أهل الإسلام بين (السنة-الشيعة).

الخلاصة: جاء الدين الجديد بعقلانية جديدة، قاعدتها ثنائية الإيمـان بعالم الشهادة، وعالم الغيب، وتجلى المعقول الإسلامي في"الشـريعة الإسلامية" التي تنظم الحياة والمجتمع، والأمة، والدولة، وحياة الأفراد والجماعات، فكان العقل السياسي في الإسلام.

تشكل منذ ظهور الإسلام عالم المعقول (عالم الشهادة) وأصبحـت الحياة فيه واجبة على المسلم، وأصبح إعماره واجبا على المسلم كذلك فـ(اللامعقول) -عالم الغيب- يتوجب الإيمان بمسلماته دون إعمـال

العقل في يقينياته، وظهرت هذه الثنائية، عالم الغيب وعالم الشهاة/العقل/اللاعقل/. ظهر الميل الشديد نحو تفضيل مطالب الغيب، والإيمان بغياهب المجهول، وتكونت عقيدة، وتكونت بذور الهجوم على العقل، وذلك بالنظر إلى العلم سلبا، وإلى عالم الغيب إيجابا، وبعبارة أخرى، قامت اللامعقولية في الإسلام على الإيمان بأن (الآخرة خير وأبقى).(الأعلى١٦)

عودة غير حميدة لمشكلة قديمة:

ثنائية الإيمان/العقل، (العقل/النقل): الهجوم على العقل.

بغض النظر التحليلي للمشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي ظهرت بعد تولي الخليفة الثالث "عثمان بن عفان"، مشكلات من قبيل (توزيع الأراضي والاقطاعات إلى المقربين للخليفة، والخلاف على تداول السلطة منذ بيعة السقيفة، وتولي أبي بكر ،وحصر الخلافة في بني هاشم) اتسعت نطاقات الحرب الأهلية داخل قبيلة قريش وتولى الأمويون السلطة في دمشق. بعد ذلك انبثقت مشكلات من طبيعة فكرية. بتعبير آخر، نتج عن الخلافات الاقتصادية والسياسية ،صراعات فكرية، بين المصلين، واختلف المصلون في كل شيء.

نعرف أن الإسلام قد نفى ما سبقه من عقائد، ومذاهب وأبطلها جميعا؛ لأن (الدين عند الله هو الإسلام)، وجاء الإسلام بنظام ديني-دنيوي بديل، قائم على الاعتقاد والإيمان، ومحله القلب والعاطفة.

بعد أن استتب الأمر لبني أمية، أثيرت مشكلات فكرية-دينية من قبيل حرية الإنسان أو اضطراره، ومشكلة الفاسق الذي/ليس بكافر، ولا هو بمؤمن، وقد دعمت مناقشات أثيرت في مناطق الفتح قبل

وصول المسلمين إليها،بين المسيحيين حول طبيعة السيد المسيح، وغيرها من المناقشات اللاهوتية، ودخلت هذه المناقشات كعامل مؤثر من حيث المنهجية على الأقل في الحياة الإسلامية الجديدة في مناطق الفتح.

تكونت فرق إسلامية، وافترقت فيما بينها، حول فهم النص القرآني، فمنها من أولت الآيات القرآنية القائلة بالحرية بأنها الحرية التي يمنحها الله لعباده أي الحرية داخل العبودية لله، ومنها من قال بالقدر، والجبر، حيث قالت الجبرية بأن الإنسان مقدر عليه أن يطيع أولي الأمر، والقعود عن إثارة الفتنة.

بينما قالت فرق المعتزلة بالحرية، وأضفت على فهم النص القرآني رداء من العقل ثقيلا.

فالمعتزل (كالنظام، والعلاف، وعمرو بن عبيد، الجاحظ، وصولا إلى الإمام الزمخشري، والقاضي عبد الجبار...الخ) كل هؤلاء حاولوا ترجيح كفة العقل على الإيمان الوثوقي الغير متسائل والغير برهاني، وبينما رجحت الشيعة وأهل السنة والجماعة جانب الاعتقاد البريء من الحجج العقلية المنطقية، والمستند إلى ما قاله تعالى (بلا كيف، ولا لماذا).

ومع ذلك فقد ظل التيار العقلي المعتزلي،وتيار أهل السنة، والشيعة كلهم جميعا داخل إطار النص، ولم يذهبوا (أي المعتزلة خاصة) بالعقل شأوا بعيدا، بل لقد كان النشاط العقلي المستقل عن النص خارج تصورهم.

لقد استخدم هؤلاء العقل وسيلة دفاع عن عقائد الإسلام. لقد رافق النشاط الفكري لهؤلاء حركة ترجمة ونقل لعلوم الأوائل (ثقافة العالم القديم -الهند، فارس، اليونان).

تجمع المصادر العربية أن "خالد بن يزيد بن معاوية" المتوفى سنة ٨٥٠ هـ، كان أول من اشتغل في ديار الإسلام، بالعلوم القديمة، وبالخصوص منها الكيمياء، والطب، والتنجيم، وأنه قد نقل ذلك من الإسكندرية التي كانت موطن ما يسمى بـ(الهرمسية):

يقول الدكتور "الجابري": فلنسجل إذن أن أول ما نقل إلى الثقافة العربية الإسلامية من علوم الأوائل، كان من العلوم الهرمسية السحرية من المركز الأصلي (الإسكندرية)، ولعل هذا وحده كاف لفهم موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل. فلقد كان أول ما عرفه المسلمون من علوم الأوائل هو العلوم الهرمسية التي تحمل في طياتها -فضلا عن ارتباطها بالسحر- عقيدة دينية تخالف عقيدة الإسلام. وإذن فموقف أهل السنة القدماء المعادي لعلوم الأوائل كان في حقيقته وجوهره بسبب العقائد الهرمسية التي تبطن هذه العلوم(١٠).

الواقع ليس هذا هو السبب وحده، والكافي كما يقول "الجابري" لمقاومة أهل السنة وغيرهم "اللامعقول الهرمسيين" المتمثل في علوم السحر، والكيمياء، وغيرها من العلوم القديمة، بل سيقاوم أهل السنة العقل الذي يأخذ من العلوم، ويعتبره "عميلا" بلغتنا اليوم، ولقد هاجم أهل السنة بالمعقول الديني الإسلامي لا معقول علوم الأوائل.

فلذلك سيمتد هذا الهجوم من علوم الأوائل القادمة من اليونان وخاصة المنطق والفلسفة، وسيهاجم أهل السنة وفقهاؤها ورجال الحديث، والقضاة، المعقول الفلسفي، والمنطق القادم من تراث الأوائل(اليونان). ويبقي أهل السنة أدوات المنطق، والحجج الصورية العقلية ليتخذوا منها أدوات للدفاع عن الإسلام، وأدوات تساعد على الاستنباط الفقهي، والأشكال المنطقية (الأرسطية اليونانية)؛ للبرهنة على صحة العقيدة منطقيا.

لقد شهدت هذه الفترة من فترات التاريخ الفكري العربي- الإسلامي صراعات المعقول، واللامعقول وكان الهجوم على المعقول بمعقول مضاد، وعلى اللامعقول بلامعقول مضاد.

تضاف إلى تيار أهل السنة والجماعة الذي قاوم العقل المستقل بشكل مباشر، تيارات أخرى لم تقل خطورة في هجومها على العقل عن أولئك، وهي تيارات الغلاة من الشيعة والرافضون إخوان الصفا، والباطنيون، وأهل التصوف.

فلقد هاجم أهل الصفا مثلا أهل الجدل في رسائلهم التي تشكل مدونة هرمسية كما يرى "الجابري"، ورغم الحديث عن الروح الانتقادية لدى إخوان الصفا، والتي أشار إليها الدكتور "عادل العوا" في أطروحة جامعية بالفرنسية، إلا أن حديث إخوان الصفا عن الروح هو من قبيل التهاويم الغيبية المطلقة، ويقولون (اعلم أن كل نبي بعثه الله فأول من كذبه، المتعاطون للفلسفة) "النظر والجدل"(١٠).

كان الدفاع عن السلطة الأموية يعتمد على النص القرآني الذي يأمر بالقدر خيره وشره، وقد تم تفسير وتبرير وجود السلطة على أنها قدر من الله -تعالى- ولقد شاعت عقيدة الجبر، وانتشرت في العصر الأموي، وكانت تبرر وجود السلطة وشرعيتها، وكونها قدر من الله ولا مفر، ولا راد لأمر الله، وهذه العقيدة القدرية بطبيعتها الفكرية تلجم النشاط العقلي الحر والناقد لجما تاما، وتقضي على الروح المفكرة الناقدة، والمتسائلة عن مجرى الأمور، وتلجم والبحث العقلي عن شرعية السلطة ويقينها.

وكذا الأمر بالنسبة للسلطة العباسية التي كانت منفتحة على علوم الأوائل، حيث جاءت المعتزلة لتبرر تربع العباسيين على عرش السلطة، ووجدت في العباسيين عقل الإيمان، ومبادئه، والتي لا تتعارض والنص، ثم هوجمت علوم الأوائل الوافدة-وخاصة العلوم

العقلية– باسم النص القرآني على اعتبار أن المعرفة اكتمل مشروعها في كتاب الله، وليس لمعرفة علوم الأوائل وخاصة العلوم العقلية أن تزيدنا شيئا، والقرآن مكتمل المعرفة والعلوم، وهو لم يفرط في شيء.

والواقع، كان الصراع بين النقل/العقل يترجم في جانب مهم فيه، الصراع بين العرب والمسلمين الذين قدموا إلى دول الفتح، أو الذين أعلنوا إسلامهم في هذه الدول، وقد حملوا في باطنهم العلوم الموروثة القديمة في هذه البقاع، وبين أهل بلاد الفتح الأصليين، ولم يكن للعرب المسلمين القادمين من الجزيرة العربية ، وهم يحملون رسالة النبي من أسلحة للدفاع سوى النص القرآني وسنة النبي، وقد تجسد الصراع الاجتماعي، والسياسي في صراع فكري بين علوم الأوائل ومن أصبح نصيرها في البلاد، وبين أتباع الوحي المحمدي القادمين من الجزيرة العربية.

إذا انطلقنا من التعريف الشائع للفلسفة من حيث كونها: نشاطا عقليا إنسانيا. يصبح الهجوم على الفلسفة، هجوما على النشاط العقلي ذاته، ويصبح هجوما على العقل لصالح طاقات فكرية إنسانية أخرى(١٢).

سجل لنا التراث العربي الإسلامي في صفحاته الفكرية، نقدا وخصاما لفاعلية العقل المستقل عن النص، وقد تمثل هذا الهجوم تاريخيا في نزول النص القرآني ذاته، إذ يدعو القرآن الكريم إلى الإيمان، والاعتقاد وتعقل هذا الإيمان والتفكير، وإعمال العقل في آلاء الكون للوصول إلى الخالق الباري، دون شطط في التفكير العقلي، ودون تجاوز حدود المعايير الفكرية للنص.

ثم ظهرت التيارات المناهضة، واللاغية للنشاط العقلي المستقل، بمراحل تاريخ الفكر العربي الإسلامي، وقد تمثلت هذه التيارات في:

١) الهجوم على العقل، والادعاء بتجاوزه، لـــدي أهـــل التصـــوف، والعرفان، والإشراقات الروحية المحضة، وأصحـــاب الـــذوق، والأحوال الخاصة.

٢) الهجوم على العقل من قبل رجال الفقـــه، والمحدثيـــن (رجـــال الحديث)، وعلماء الدين، والقضاة، والمذاهـــب، ورجـــال الفكـــر الإسلامي التقليدي(الإمام أحمد بن حنبل، الإمام الشافعي)، ولقـــد روي عن الإمام قوله ((إن كل ما لم يأت به الرسول فـــهو مـــن الهوى))، وقد نهى الإمام عن الجدال، وقال إياكم والنظـــر فـــي الكلام، وهذا يعني أن كل محاولة لإعمال عقل مستقل فيما لم يأت به الرسول، أو ما أتى به النص القرآني أولا، فهو من الـــهوى، وكذلك الإمام الغزالي الذي أمر بضرب مـــن يجـــادل بـــالدرة، وطالب بإلجام العوام عن علم الكلام، وابن تيمية، ورجال الفكـــر الشيعي...الخ).

وحاصل الأمر، لقد كانت المواقع التـــي انطلقـــت منـــها مقاومة العقل، والتي دخلته الآثار الهرمسية، والغنوصية-الســـحرية- وبعض التيارات المتصوفة، والحشوية وتعاليم إخوان الصفا، والشيعة الإسماعيلية الباطنية، وبعض من يدعو بفلاسفة الإسلام: كابن ســـينا والفارابي والغزالي، هي قائد الهجوم على العقل،وسيستمر الـــهجوم على العقل بثوب الهجوم على الفلسفة ومنتحليها.

الهجوم على العقل في نفي الفلسفة:

عندما طرحت مسألة ثنائية الإيمان/العقل، ونوقشت في الصفحات السابقة، خلص النقاش إلى القول أن الغالبية المطلقة مـــن المســـلمين وعلمائهم قد رجحوا كفة الاعتقاد، على كفة النشاط العقلي المســـتقل، وأن هذه الغالبية ظلت طوال العصور الوسطى الإسلامية بتفكيرهـــا

تعتمد على آلية الاعتقاد، والتي يحركها -إن صح القــول- الانفعــال والشعور، وهي بذلك تكون قد استجابت إلى دعوة النــص القرآنــي الذي ربط بين الفؤاد، والقلب، والعقل((لهم قلــوب يعقلــون بــها)). وطالب في نهاية الأمر بتغليب الاعتقاد، فيكون الأمر واضحــاً بــأن استبعاد النشاط العقلي المستقل قد تم نصاً، وروحاً وفكراً ورؤى.

فالأولوية إذن، كانت ولاتزال في الديــن الإســلامي، والأديــان الأخرى عموماً هي: للقلب، أو العاطفة والشعور المباشر والانفعــال، في الفهم لدى الإنسان، وتحييد النشاط العقلي المستقل.

لقد تم إثبات الاعتقاد، وإذا قلنا أن الإثبات نفــي، فإنــه بإثبــات الاعتقاد يتم نفي العقل كنشاط مستقل عن الاعتقاد.

ولا يغيب عن كاتب هذه السطور واقعة أن الهجوم على العقل أو إلغائه يترجم من ناحية أخرى، واقعاً اجتماعياً وسياسياً متأزماً.

ففي المرحلة الأولى كان الهجوم على العقل يتم تحت قناع الدفـاع عن النص لدى جميع تيارات الفكر الإسلامي السياسي.

لقد طُولب بتحكيم كتاب الله، عندما رفعت المصاحف في الفتــن الكبرى؛ لتحكيم النص..، فكان نتيجة الأزمة السياسية والاقتصاديــة والاجتماعية في الوضع العربي الإسلامي أن تــم: تحريــم الفلســفة وتكفير منتحليها، وإقامة حــدود الله ضــد المــارقين، والزنادقــة، والملاحدة، والرافضين للتقيد بكتاب الله، وبعبارة أخرى تحريم النشاط العقلي الإنساني المستقل إزاء النص.

الواقع لقد خلق التفكير العقلي المستقل في محاولاته الأولى فــي الثقافة العربية الإسلامية (ابن المقفع، ابن الراوندي، الرازي، حنيــن بن اسحاق) إشكالاً كبيراً في السياق الفكري الإسلامي، ومن جــانب

آخر واجه المسلمون في دول الفتح تراثاً حضارياً متراكماً، بالإضافة إلى ما نُقل من علوم الأوائل، مما شكل خطراً على العقيدة، وخطراً على (الهوية العربية-الإسلامية) بلغتنا المعاصرة.

فاضطر المسلمون إلى الأخذ بطرف من النشاط العقلي الفلسفي، وخاصة أدوات المنطق والبرهان؛ وذلك لاستخدام هذه الأدوات للدفاع عن العقيدة أمام منكريها وناقديها من الأطراف (الشعوبية).

الخلاصة: أعتبرت الفلسفة ونشاطها العقلي المستقل من العلوم الدخيلة التي لابد من مقاومتها، والهجوم عليها شكلاً ومضموناً؛ لأنها في رأي أصحاب النص، زندقة وكفراً.

١-يعرف الجميع أن التصوف -في تعريف من تعريفاته- هو نشاط روحي، وسلوك وجداني، أو فعل دافعه الشعور يعتمد على التذوق(انظر امتداد نظرية الذوق والذائقة والتذوق في العمل النقدي الأدبي عند العرب).

والمتصوفة هم أهل عرفان، ومعرفة لدنية، لا يعنيهم الغوص في النظر، والتأمل العقلي المجرد، والتفكير المنطقي المنظم، ويزعمون تجاوز هذه الأنماط من التفكير؛ بغية تحقيق التوحد مع الذات الإلهية، أو الحلول في باطنها، أو محايثتها، أو توحيد الله/الوجود. ويؤولون النص الديني، ويتجاوزون حرفيته، ويواصلون جهدهم ومعاناتهم ليتحرروا من أدران المادة، ويخرجوا نهائياً من العالم المحسوس ليعانقوا الذات الإلهية، ويعيشوا لحظة الشهود، من خلال أحوال، ومقامات معروفة.

إذن لقد مالت الصوفية ميلاً حاداً نحو التجربة الروحية، والمعاناة الروحية، مقابل إعمال العقل في الأشياء، واستبصاره للمادة، فهؤلاء

يرمون وراء ظهورهم عوالم الأشياء، وظواهر المادة، ويرمون بالمدنس في سبيل معانقة المقدس.

ظلت التجربة الصوفية تجربة فردية، لا علاقة لها بالحراك الاجتماعي، ولا بالتطور الاقتصادي، وحياة الأفراد المعاشية، وهمومهم اليومية، ولا بالهموم السياسية، وتجلى الموقف سلبياً إزاء الحياة،(يجب أن نذكر أن وجهاً إيجابياً تجلى لدى بعض الحركات الصوفية في مقاومة الآخر الأجنبي-الغازي)(١٢). وخاصة في العصور الحديثة- المغرب العربي-السودان.

ابتعدت المتصوفة عن العقل ونشاطه المستقل، واستبعدته، أي بتعبير آخر، أثبتت الصوفية التجربة الروحية-الشعورية-الوجدانية، ونفت التجربة العقلية الإنسانية المستقلة.

٢-رجال الفكر الإسلامي.

خلق النشاط العقلي المستقل، أو محاولة التفكير بالاستقلال عن ثقافة النص، إشكالا كبيرا في الحياة الفكرية الإسلامية، منذ أن بدأت علوم الأوائل تتغلغل من(الهند، فارس، اليونان) إلى الحياة العربية الثقافية منذ منتصف القرن الثاني الهجري. واعتبرت الفلسفة كنشاط عقلي مستقل عن الدين رجسا من عمل الشيطان، وطرفا من العلوم الدخيلة، ورغم أنها لم ترفض كلية، بل قبلت كأداة استعان بها المثقفون المسلمون طوال عصور الحضارة العربية الإسلامية للدفاع وتبرير العقيدة (عقليا)، وعمل الفلاسفة الذين دعو بالفلاسفة المسلمين (في المشرق: الكندي، الفارابي، ابن سينا،في المغرب: ابن ماجة، ابن رشد...) على التوفيق بين العقل/النقل أو الدين والفلسفة،أو الإيمان والعقل.(انظر محاولة الفارابي وابن سينا، وابن رشد...الخ).

أما أهل السنة والجماعة والشيعة في فرقها المغالية، والمعتدلـــة، فجميع هؤلاء اعتمدوا النص، وكل حسب تأويله الخـــاص للوحـــي، وكلهم ألحقوا العقل بالوحي، وأخضعـــوا معـــايير العقـــل لمعـــايير الوحي.(انظر الأشعرية لدى أهل السنة، والاثنا عشرية لدى الشيعة).

الهجوم على العقل لدى الإمام الغزالي (حجة الإسلام):

بلغت الحضارة العربية-الإسلامية أوجـــها فـــي القـــرن الرابـــع الهجري، ووصلت إلى القمة في النمو، وفي الوقت نفسه بدأت فـــي التدهور، والانحطاط، والتأزم البالغ في مختلف مظاهرها: السياســية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية. وفي هذا السياق الحضـــاري، ظهرت شخصية من أخطر وأعظم شخصيات الفكر الإسلامي، تجلت عظمتها في مدى تأثيرها طوال مراحل التـــاريخ الفكـــري العربـــي الإسلامي، وتجلت خطورتها في مدى تأثيرها المدمر علـــى مســـار العقل الإسلامي في محاولته اليائسة للاستقلال عن النص.

لقد لبس الهجوم على العقل لدى الإمام الغزالي رداء الهجوم على الفلسفة، ووصم المشتغل بها بالكفر، وقد وضع الغزالي كتبا عظيمـــة الشأن يحارب فيها الفلسفة بلغة الفلاسفة، ويحارب هؤلاء من الداخل، أي على أرض الفلسفة ذاتها، ومن هنا يتجلى تأثيره التخريبي للنشاط العقلي المستقل.

إنه لم يكتف بالفصل بين الفلسفة والدين، بل لقد انحاز انحيـــازا كبيرا لا مهادنة فيه إلى الجانب الروحي، والديني عموما،وقد انتظـــر لحظة أن يقذف الله في قلبه نور الإيمان الكامل في المسجد الجـــامع، في دمشق.

لقد عمل شيخنا على وضع حد للاشتغال بالفلسفة لدى الخاصـــة؛ بتأليفه عددا من كتبه أهمها (تهافت الفلاسفة) ولدى العامة بإلجامـــهم

عن علم الكلام، وقطع دابر كل من تسول له نفسه مناقشة كبرى يقينيات الكون في حلقات المسجد. (انظر:الجام العوام عن علم الكلام) للشهرستاني.

وأخيرا طالب الغزالي السلطة بضرب العوام بالدرة إذا ما حاولوا التفكير والجدل في قضايا الغيب (الميتافيزيقا).

شكلت "ردة الغزالي" إزاء النشاط العقلي في الإسلام، الضربة الأخيرة والنهائية لهذا النشاط الحضاري، وبذلك تكون هذه الردة متساوقة مع انهيار الحضارة العربية الإسلامية في القرن الخامس الهجري.

إقامة الحد على النشاط العقلي، أو بداية "اغتيال العقل":

آذنت شمس الحضارة العربية الإسلامية بالمغيب منذ نهايات القرن الرابع الهجري، بعد أن وصلت إلى ذروة التقدم، وقمة الهرم، فسقطت من القمة إلى القاع، بعد أن أشرفت على النهاية، حسب نظرية بن خلدون في نشأة الحضارات، وصعودها وانهيارها ورافق هذا الانهيار، انهيار التفكير العقلي حتى في حدوده الدنيا، وارتباطه بالعقيدة، لقد تجلت مأساة العقل، ونشاطه الملحق بالعقيدة، في مطالب الفقهاء، ورجال السنة في القرن السابع الهجري، بإقامة حدود الله ضد المارقين، والزنادقة، أصحاب الشطط في التفكير العقلي، وطالبت السلطات بملاحقة الناشطين في السؤال، والباحثين عن الأجوبة من خلال الحوار والمعرفة، وقد جاءت فتوى"ابن الصلاح" بتحريم الفلسفة (النشاط العقلي)، ومطالبته بإقامة الحد، تعبيرا عن المناخ الذي ساد تلك المرحلة من السقوط لعالم الإسلام.

لقد أفتى"ابن الصلاح"قائلا، في نص مشهور، وسنعمل على تفكيك بعض مصطلحاته ونضعها بين أقواس:

((الفلسفة (النشاط العقلي الحر) أس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، بهما مثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف (أعمل عقله) عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة، ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه (يفكر مستقلا) بالمنطق (مستخدما آلية البرهان، واليقين المنطقي العلمي)، والفلسفة لفائدة يزعمها. فقد خدعه الشيطان(العقل) ومكر به.

فالواجب على السلطان (تنبيه الفقيه السلطة السياسية مخاطر استخدام العقل) أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائين (الفلاسفة- أتباع أرسطو في المنطق خاصة)، (الذين يفكرون بلا مرجعية نصية شرعية))(١٣).

لقد سارت على خطى "ابن الصلاح" المرعبة ضد النشاط العقلي كافة الاتجاهات السلفية المتشددة أو الأصولية (ابن قيم الجوزية- ابن تيمية-محمد بن عبد الوهاب...الخ).

السلفيون، والمتشددون (الأصوليون) والهجوم على العقل:

السلفية تعريفا، محاولة تستنجد بالعقيدة، أو النص بحرفيته سواء كان سماويا أم وضعيا في حل مشكلات الوجود والحياة والإنسان، وهي تدعي امتلاك الإجابة القاطعة والحاسمة لوابل الأسئلة التي يطرحها الإنسان إزاء كل شيء أو أمر أو مسألة.

وبما أن هذه الأوراق تدور داخل الدائرة العربية الإسلامية، فستكون المعالجة محدودة ضمن هذه الدائرة، مع عدم إهمال السياقات

العالمية التي تؤثر، وتغذي، وتدفع إلى هذه المحاولة المتطرفة، شديدة التطرف.

لعل السمة المشتركة بين جميع الأصوليين، والعقائد الأصولية، و(السلفية) هي:

رفض سلطان العقل، ومقاومته، وفي أحسن الأحوال جعل العقل أداة في خدمة النص. إن النص الديني بحرفيته يمثل السلطة والمرجعية المطلقة لدى كافة التيارات السلفية، والنص عند السلفية هو: الكتاب والسنة، والاهتداء بالسلف الصالح، وإجماع فقهاء السلفية تحديدا، ولا مجال لإعمال العقل الفردي، أو الجماعي في فهم وتأويل النصوص إلا بما يوافق النصوص نصا وحرفا!.

يرتد -كما هو معلوم- هذا الاتجاه السلفي، تاريخيا وعقائديا إلى الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، ويرتد فكريا إلى الأشاعرة -نسبة إلى الإمام أبو الحسن الأشعري)، وتمتد خيوط هذه الشبكة السلفية حديثا لتشمل شيخ الإسلام "ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، والإخوان المسلمين، والتيارات الأصولية المعاصرة".

لقد اضطرت وقائع عصر شيخ الإسلام "ابن تيمية" وهجوم المغول والتتار للقضاء على بقايا ثغور الامبراطورية الإسلامية؛ إلى اللجوء والاحتماء بالعقيدة، وبنصها القرآني وسنة النبي كما نقلها أصحاب الحديث الصحيح صحة مطلقة.

فلقد تصور "ابن تيمية" أن تعبئة الطاقات الإسلامية ضد الغزاة لا تتم إلا برفع ألوية العقيدة، والتضامن المطلق بين المسلمين تحت لواء الفرقان، ووجد أن العقيدة هي الضمانة الوحيدة للنصر على الأعداء وحماية المسلمين من الكفرة.

اعتقد الشيخ كذلك أن كل خروج عن النص هو بمثابة ارتداد عن الدين، أو في أحسن الأحوال مخالفة غير معقولة (لصريح المنقول)، وبذلك يقوم الشيخ بهجوم شديد ضد المعقول الذي يخالف أو يخرج عن المنقول، ولم يكن في تصوره يوما أن العقل الإنساني بقدراته الذاتية، يمكن أن يعمل مستقلا عن النص، بل لقد ذهب الشيخ بعيدا ليدعو السلطان إلى إقامة الحد والنفي من ديار المسلمين لكل من (يفكر خارج إطار النص).

هيمنة المعرفة النصية وأدواتها: استبعاد العمل العقلي

ساد تصور لاعقلاني من جراء الهجوم على العقل طوال ألف عام من تاريخنا الفكري، وإذا لم نعتبر هذا التصور اللاعقلاني هجوما بالمعنى الدقيق للكلمة على العقل، فإنه يمكن اعتبار الهيمنة الكاملة، أو الإثبات الأكيد للنص هو :نفي للنشاط العقلي المستقل، وهذا الموقف كان ولايزال يحمل في طياته سلبيات سادت تراثنا الفكري طوال الفترة المذكورة أعلاه.

لقد لخص الدكتور حسن حنفي (في سياق آخر مختلف عن سياقنا هنا) هذه السلبيات أو الجانب اللامعقول الذي هيمن على الفكر العربي الإسلامي، لكونها تكمل ما نحن بصدده في هذه الأوراق، ولقد أمكن تحديد هذه السلبيات كما يلي:

١) سيادة التصور التسلطي للعالم المتمركز حول الواحد، الذي يعلم كل شيء، ويقدر على كل شيء، ويظهر ذلك بوجه خاص في العقائد الأشعرية التي ورثتها الأجيال أكثر من ألف عام، وأصبحت جزءا من روح الأمة، والذي أصبح عنوانا للطغيان الشرقي، ويظهر ذلك أيضا في الواحد الحر المسيطر على كل ما سواه، وما نتج عن ذلك من قدرية، هذا التصور

المركزي للواحد للعالم ليس سلبيا في حد ذاته، فقد استخدمته الصين لصالح الثورة، ولكنه يمثل لنا الآن عنصرا سلبيا (مستبعدا لتعددية أنماط التصور والتفكير) في تراثنا ويمثل لنا إشكالا في الحرية (التفكير المستقل عن النص)(١٣).

٢) سيادة المعرفة النصية (وهو ما يعبر عنه أدونيس بلغة ثقافة النص)(١٤)، والقول بأولوية النقل على العقل، أو القول المأثور على المعقول، أو بأهل الأثر في مقابل أهل الرأي، حتى غابت المعرفة العقلية المستمدة من الواقع المباشر أو من استقراء حوادث التاريخ، والاهتمام بحرفية النص.

٣) المنطق الصوري الذي تغلب عليه أشكال القياس وصور الفكر (المجرد) كما هو الحال في منطق القضايا، وغياب منطق الواقع. واستبعاد أحوال التاريخ وقوانين الصراع.

٤) التصور الثنائي للعلم الذي ظهر في علوم الحكمة، وعلم المنفعة، وقسمة العالم إلى أول وآخر، صورة ومادة، عقل وحس، مطلق ونسبي، باق وفان، وسيطرة أو تفضيل أحد طرفي هذه الثنائية، حسب ما اقتضاه النص، أي تفضيل علوم المنفعة على الحكمة (علوم العقل) والعالم الآخر على الأول، والصورة على المادة، والمطلق على النسبي...الخ(١٥). وكذلك ظهور ثنائيات من قبيل الزمان والمكان، التخلخل والتكاثف، الجوهر والعرض، وفي الأخلاق: الخير والشر، الملاك والشيطان، الإيمان والكفر، الثواب والعقاب...(هذه الثنائيات في الواقع يوحي بها النص القرآني ذاته. لقد أعطت هذه الثنائيات الأفضلية للطرف الأول في كل شيء، وسلبية للطرف الثاني (الرجل المرأة- الصبي البنت) وهو ما عبر عنه أدونيس كذلك بالتفاضلية في الثنائية، ولم تكن إذن

ثنائيات صراعية جدلية متطورة نامية متوترة ترنـــو نحــو التقدم.

٥) سيادة الفضائل النظرية على الفضائل العملية، وجعل التــأمل أعلى قيمة من العمل، والحكيم أفضل من العامل، وقــد ورث الناس هذا الاختيار، فنشأت أفضلية الجامعات على المعــاهد العليا، والمدارس الفنية، وقيمة الأعمال المكتبية على الأعمال اليدوية، وقيمة التنظير والتخطيط على الممارسة، وإعطـــاء الأوامر على الإنتاج والتنفيذ، وقد ظهر كذلــك فــي المــدن الفاضلة التي يقبع الملك الفيلسوف فيها على قمة الهرم!!(١٦).

٦) سيادة القيم السلبية التي ظهرت في علوم التصوف، كما هــو الحال في المقامات، مثال التواكل، والرضا (بأقل الأشــياء، والقناعة بأدناها،ومحدودة الطموحات...)(١٧). والصبر والزهد في الأحوال مثل: الخوف، والخشية، والرهبة، حتى أصبحت قيما اجتماعية توجه سلوك الناس(١٨).

هذه السلبيات، وهناك غيرها، حملها التراث أو إن صح التعبــير، لقد فهمنا هذه الثنائيات سلبا، وشكلت جوهر وعرض تفكيرنا الحديث والمعاصر.

ب:الهجوم على العقل في العصور الحديثة

في الثقافتين الأوربية والعربية-الإسلامية

كان مناخ العصور الوسطى الأوربية دينيا صرفا، وكان نمط التفكير العام أيضا يعتمد آلية التفكير الديني، والتي تتبع النص الديني (الكتاب المقدس- نصوص آباء الكنيسة).

ظل الأمر على هذا النحو طوال العصور الوسطى، وإلى أن بدأ الإصلاح الديني داخل الكنيسة في ألمانيا وسويسرا، وبريطانيا، وفرنسا...

تغيرت موازين القوى لصالح الغرب بعد انهيار آخر معالم الحضارة العربية الإسلامية في سقوط بغداد (١٢٥٨م)، وبدأ الغرب منذ القرن الرابع عشر يعيد النظر في نمط تفكيره، وتطورت الحياة الاقتصادية، وتمت الكشوف الجغرافية،وسارت الأمور منذ ذلك التاريخ لصالح الغرب في مختلف شؤون الحياة والعالم.

شكل الفيلسوف الفرنسي ديكارت -نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة- بداية النشاط العقلي إزاء تفكير العصور الوسطى الدينية.

وبزغ القرن السابع عشر بنهضة الفكر العقلاني على حساب التفكير الديني الذي ظل سائدا طوال العصور الوسطى، وقد دعي هذا القرن في تاريخ الفكر بقرن العقل، حيث لمعت فيه أسماء الفلاسفة العقليين كاسبينوزا(١٦٣٢-١٦٧٧)، ولايبنتز (١٦٤٦-١٧١٦)

وأيضاً ظهرت أسماء فلاسفة الحس والتجربة، فبحثوا في أصول الأفكار، وبنية العقل الإنساني مثل: جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، وديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦)، والواقع لقد ظلت الدعوة إلى التفكير العقلي حتى هذه المرحلة محصورة في عالم النخب الأوربية، وفي إطار التفكير الفلسفي، والأجواء الجامعية المتخصصة في دراسة الفكر وتاريخه.

عصر التنوير:الفيلسوف الألماني (كانت) تعريفه للتنوير:

كان من نتيجة الانقلاب الشامل في حياة الغرب منذ بداية النهضة الأوربية، أن اتّسع نطاق التفكير، وبرزت أفكار التسامح الديني، بعد صراعات دينية كبرى وانقلابات كبرى- اقتصادية(من صناعة وزراعة-وتجارة) وتقدم علمي وتكنولوجي.

وقد شمل اتساع نطاق التفكير هذا، فتكونت (إرهاصات) تدعو إلى تغيير الأوضاع، وإزالة الدكتاتوريات السياسية الملكية المستبدة، ونظم الوراثة الملكية، وبكلمة أخرى، شكلت الدعوات التي حركها المفكرون في الغرب حافزاً عظيماً للتغيير، والثورة على الأوضاع الفاسدة.

تفجرت الثورات الاجتماعية والسياسية في الغرب نتيجة الانقلابات الاقتصادية والتقدم العلمي والصناعي(التكنولوجي)، ودعوات المفكرين والفلاسفة إلى التغيير وشكل كل هذا ما سمي بالغرب بعصر التنوير، وهو المشهور في تاريخ الفكر في إحداثه تغييراً شاملاً، متخطياً الأجواء الأكاديمية وحلقات المفكرين ليشمل حياة الناس عموماً.

لقد جاءت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) لتتوج هذه الدعوات إلى التغيير الاجتماعي والسياسي، حيث تصور رجال الثورة الفرنسية

العقل إله يمشي على الأرض، ونوراً ينير درب البشرية.((لقد كان عصر التنوير في جوهره دعوة إلى تقدير النشاط العقلي المستقل)).

وأخذ المفكر العقلاني يميل إلى الموقف القائل بأن المعقول هو الطبيعي، ولا وجود لشيء خارق للطبيعة، وأقصى ما يعترف به هو المجهول الذي قد يصبح يوماً بقدرة العقل، مفهوماً ومعقولاً.

لا مكان إذن لقوى خارقة أو معجزات، ولا مكان للاستسلام لقوى الغيب.لقد نزعت العقلانية إلى إسقاط كل ما هو خارق للطبيعة. وأبقت على الطبيعي، الذي يؤمن به المفكر العقلاني وهو قابل في النهاية للإدراك والفهم، وأيقن المفكر العقلاني أن ((السبيل إلى فهم كل شيء وتفسيره، هو في وسائل ومناهج الفكر العلمي))(١٩).

عرف الفيلسوف كانت في مقال له(١٧٨٤) التنوير قائلاً:

((التنوير هجرة الإنسان من اللارشد إلى الرشد، والإنسان هو علة هذه الهجرة، واللارشد هو عجز الإنسان عن الإفادة من عقله من غير معونة الآخرين - دعوة كانت إلى الاستقلالية في التفكير العقلي))(٢٠).

كما أن اللارشد سببه الإنسان ذاته، عندما لا تكون علته مردودة إلى نقص في العلم، وإنما نقص في العزيمة والجرأة على إعمال العقل من غير معونة الآخرين.

فكن جريئاً في إعمال عقلك، هذا هو شعار التنوير(٢١)، فالكسل والجبن هما السبب في بقاء معظم البشر في حالة اللارشد طوال حياتهم.

التهجم على عصر التنوير

ظهر فلاسفة معارضون لعصر التنوير، ووضعوا حججهم فـــي دحض الاعتماد على العقل، في فـــهم الوجــود والعـــالم و الحيـــاة، ووضعوا إصبعهم على قدرات إنسانية أخرى غير العقل كائنـــة فـــي الإنسان مثل: الغريزة، والحدس والانفعـــال، والعواطـــف أو الحيـــاة الوجدانية، والواقع لم يخل تيار اللامعقول الذي ظهر مرافقـــا لتيـــار العقل في القرن السابع عشر والثامن عشر، من قوة وعنف وتطرف، ولقد وضع هذا التيار حججه المضادة لعمل العقل المســـتقل، ولعـــل السمة المشتركة بين أولئك الذين عارضوا الاعتمـــاد علـــى قـــدرات الإنسان العقلية، تتجسد في قولهم بالاعتماد على المشاعر الإنســـانية والحدوس الإنسانية، والتجربة الحسية، تلك المشاعر والحدوس التـــي تقول بالمعرفة المباشرة -دون المرور بالوسائل العقليـــة المنطقيـــة- للأشياء.

ومن الأسماء التي قاومت عقل التنوير في الثقافة الأوربيـــة: لويـــس ديابونالد (١٧٥٤-١٨٤٠) وجوزيف دي مســـتر (١٧٥٣-١٧٨٢)، وسيستمر هذا التيار الهجومي على العقل، أو المضاد للعقـــل، حتـــى يومنا هذا، ولنذكر على سبيل المثال أسماء أخرى توالت بعد هذيـــن الاسمين المذكورين، أسماء(أصحاب المدرسة الرومانسية الأدبيـــة)، وفلاسفة الحياة، وأسماء آخرين كـ"نيتشه" و"كيركجـــارد" وتيـــارات اللامعقول في الأدب الأوربي الحديث...

القرن التاسع عشر الأوربي: الغرب السياسي والغرب الثقافي في العالم العربي.السياق العالمي:

إثر التقدم الصناعي والتكنولوجي في الغرب، والتفكير في التوسع الاقتصادي واستثمار العالم، بدأت بريطانيا بالسيطرة التجارية، ممتدة عبر الصين والهند، وزحفت الجيوش الفرنسية نحو شمال أفريقيا.

في عام (١٨٤٨)، أي في النصف الثاني من هذا القرن، يصدر البيان الشيوعي. في عام(١٨٥٩) ينشر العالم البيولوجي "داروين" أصل الأنواع.

بين عامي (١٨٦١-١٨٦٦) عاشت أمريكا حربا أهلية بين الشمال والجنوب. كذلك ظهرت قوة اليابان على يد الامبراطور"ميجي".

الخلاصة: عملت فرنسا، وبريطانيا على استثمار قارتي آسيا وأفريقيا..

ظل مبدأ التقدم هو الأرض التي سار عليها القرن التاسع عشر ثقافيا، واستمرت العلوم في التطور والنماء، وحدث تقدم أخلاقي على صعيد الفرد والمجتمع، وكانت الحروب قد توقفت في القارة الأوربية.

أصبح الإنسان يحتل الصدارة في التفكير العام في الغرب، على حساب الاعتقادات الدينية-القائمة على مركزية الله- وكذلك نظر أيضا إلى الإنسان على أنه ذرة تافهة في تضاعيف الكون، ومن هذه النظرة الأخيرة تضاءلت فكرة احترام الكائن الإنساني لذاته، وهو ما شكل الأرضية لاستعمار الشعوب، والهيمنة على مقدراتها، وسحق إرادة الشعوب لصالح المصالح الاستعمارية.

((وفي هذا القرن برزت النزعات القومية في صيغتها الجوهرية، والقائمة على الانتماء إلى الجماعة كما هو في المفهوم الغربي، وولدت فكرة الدولة، والأمة.

أصبحت القومية إحدى الصور الفعالة المنتجة، التي اتخذتها في عالم الواقع مبادئ السيادة الشعبية، والتقدم واستعداد الإنسان لبلوغ الكمال، وكذلك ظهر التأكيد على مفهوم حقوق الإنسان، واعتلت الطبقة الوسطى ((تؤكد وجودها نتيجة التطور الصناعي والفني والإداري))(٢١).

الخلاصة: لقد سجل العقل في هذا القرن انتصارا كبيرا، وخاصة في تمسكه الشديد بمبدأ التقدم الإنساني اللامتناهي، والتبني الجازم لأفكار فلاسفة العقل والتنوير، ولكن من الناحية الأخرى، برز الغرب السياسي، وكشف عن وجهه القاتم في التحرك العظيم نحو الاستعمار، والهيمنة واستغلال الشعوب والإمساك بمقدراتها تحت غطاء إنساني، وحضاري كاذب، وبدعوى تحضير الشعوب المتوحشة!.

الهجوم على العقل في القرن التاسع عشر:

انخرط المثقفون، والكتاب المحترفون، خلال القرن التاسع عشر في تيار الحياة الاقتصادية، وحدث تحول اقتصادي كبير في وضعهم، ومكانتهم الاجتماعية، ولم يعد هؤلاء يعيشون في أبراج عاجية، بل انخرطوا في حياة الشعوب، وأخذوا دورهم في التنظير لمجتمعاتهم والنظر في عللها، وأمراضها، وطرق معالجتها (انظر ماركس، وإنجلز في البيان الشيوعي مثلا) وقد أخذوا بناصية أدوارهم بجدارة في وسط مجتمعاتهم، يلمسون مواطن الفشل والخيبة، والفساد، والشطط في الاعتقاد، أم في القدرة الخارقة للعقل الإنساني وكانوا

يوصفون عادة بالتمرد. وحقا، لقد بدأ الكثير من هؤلاء بالتمرد على مبادئ وثوابت عصر التنوير، في هيامه المطلق بالعقل الإنساني على حساب المشاعر والأهواء الإنسانية المهملة.

بدأ الشك يخالج هؤلاء إزاء العقل والتقدم الإنسانيين، أهم مبادئ عصر التنوير، وعملوا جاهدين على التأكيد المطلق للمبادئ المضادة لعصر التنوير العقلي، أي ثوابت اللامعقول من: حياة وجدانية، انفعالات وعواطف وروحانية الناس، وبتعبير آخر الميل الشديد نحو الحياة في صورتها، وعنفوانها وانطلاقها وبراءتها وعفويتها (٢٢).

والخلاصة لقد هوجم العقل من قبل اليمين (الاتجاهات الدينية)، ومن قبل اليسار، فمثلها الماركسية في البيان الشيوعي، والفلسفة المادية.

وقد تميز هذا القرن بأنه عصر تباين شديد وغريب في مجال الفكر، أي عصر تعدد الآراء والأفكار، وكانت أطرافه شديدة التباعد. فكان التقليد ضد التجديد، وكانت السلطة ضد الحرية، والإيمان بالإله الواحد، والولاء للأمة..والإيمان بالعقل وحده القادر على فعل كل شيء، والولاء للأمة مقابل الولاء للإنسانية والعالم..الخ(٢٣).

ومن الجانب السياسي ألقت الإمبراطوريتان الإنجليزية والفرنسية بثقل ظلالهما على العالم، وظهر أخطبوطهما في جميع أرجاء العالم، وعملا -بالإضافة إلى مطامحهما الإمبراطورية والتوسع في المجال الاقتصادي الحيوي- على نقل الأفكار والمنظومات الفكرية لثقافتهما، إلى العالم المستعمر (بفتح الميم) وكان المستشرقون بدورهم قد أدوا خدماتهم المعرفية، وبتوليد صور الشرق في أذهان الناس من خلال أعمالهم الفكرية ورحلاتهم وانطباعاتهم، ومراسلاتهم...الخ.

ج- معادة العقل في الثقافة العربية الحديثة (المسمى بعصر النهضة)

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدأت الإمبراطورية العثمانية تلفظ أنفاسها في العالم العربي الإسلامي، وفي شرق أوربا وبعد أن ظهرت معالم الإمبراطوريات الأوربية، وأصبحت مسألة الإمبراطورية العثمانية (الرجل المريض) موضع النظر، والتفكير بإنهاء هيمنتها المتبقية، ووضع آخر مسمار في نعوشها المنتشرة هنا وهناك.

جاءت حملة الإمبراطور (نابليون بونابرت) عام١٧٩٨م على مصر والشام لتضع حدا فاصلا بين العالم العثماني والعالم الحديث، ودخل (نابليون) بجيوشه وعلمائه غازيا وباحثا في حضارة مصر القديمة، وحاملا -كما زعم- رسالة تحضيرية للمسلمين، وعلم الحرية أحد مبادئ الثورة الفرنسية المقدسة.

ظهرت محاولات، وخلافات ومعارك كلامية في الآونة الأخيرة على صفحات الجرائد المصرية وبين المثقفين المصريين، أو بين تيارين. حول أهمية، وضآلة أثر الحملة الفرنسية على العالم العربي.

فأنصار الثقافة الفرنسية رأوا أن هذه الحملة رغم سلبياتها، كانت فاتحة خير على العالمين العربي والإسلامي، حيث أدخلتهما في عالم الحداثة والحضارة الحديثة.

أما أنصار الثقافة الأنجلوساكسونية، فقد رأوا أن حملة نابليون كانت شرا مستطيرا، وكانت حملة استعمارية غازية، كغيرها من هجمات الاستعمار في العالم، ذات طموحات إمبراطورية، وهيمنة على مقدرات الشعوب. نعتقد من جهتنا أن هذا ((التدخل الفرنسي النابليوني ظل محدود التأثير وظل مرحليا)) وخاصة في المجال الفكري، أعني الحياة العقلية، ولم يحدث الانقلاب في نمط التفكير في مصر أو الشام.. ولم يحصل تبن جاد لمبادئ الثورة الفرنسية(الحرية-الأخوة-المساواة) التي حملها نابليون إلى مصر والشام.

إن الإمبراطور الفرنسي عندما دخل إلى مصر والشام، ليفتح الشرق نحو الآخر وحضارته، وحداثته المادية والفكرية قد نسي جروح الماضي التي كان الشرق العربي الإسلامي قد عاناها من جراء سلسلة الحروب الصليبية،وترسب هذه الجروح في قاع اللاشعور، هذا على الصعيد السيكولوجي والروحي.

أما على الصعيد الفكري فقد نسي الإمبراطور أيضا مدى رسوخ ثقافة النص أو بتعبير آخر، التفكير التقليدي بأنماطه المختلفة (إسطوري-ديني...الخ)، وهي أن الثقافة التقليدية رابضة في قعر الفكر.

لقد انبرى شيوخ الأزهر منذ اليوم الأول لدخول الإمبراطور بمعارضته، ومقاومته الجيوش الأجنبية المسيحية الغازية التي تريد تنصير العالم الإسلامي، وتبشر بحضارة مسيحية.

فشل حلم نابليون في تحقيق مشروعه الإمبراطوري (الاستثماري)، والداعي إلى مد نفوذ حضارة الرجل الأبيض..وبغطاء الاكتشافات العلمية لتراث المنطقة (كشف معاني ورموز الكتابات الهيروغليفية) في أهرامات مصر والحضارة الفرعونية.

والواقع لم تكن حملة نابليون كلها عبثا، فاقدة المعنى، بل لقد كان لها بعض التأثيرات الإيجابية، فقد فتحت الأذهان ((نحو تقدم الآخـر، وتأخر العالم العربي والإسلامي في مختلف المجالات)).

عمل (محمد على باشا) ١٨٠٥-١٨٤٩م علـى تحقيـق أحـلام إمبراطورية، داخل النفوذ العثماني، ولكن سرعان ما حاول تحقيـق مشروعه الشخصي، والتمرد على سلطة الباب العالي، وعمل علـى كسر الباب والخروج بقوة؛ ليحقق حلم إمبراطوري، غاض البصـر عن تربص الغرب بطموحاته.

عمل الغرب في حلف عظيم، على تحطيم مشروع (محمد علـى) رغم تعاطف الأخير مع الغرب،وانفتاحه علـى حضارتـه، إلا أنـه بطموحاته الإمبراطورية الشخصية شكل خطرا على مصـالح هـذا الغرب فسقط المشروع، وبدأت الإمبراطوريتان الإنجليزية والفرنسية بطرد العثمانيين بشكل مباشر، أو غـير مباشـر، أي عـن طريـق الثورات العربية والتمردات الداخلية ضد العثمانيين. لم تكن أنفـاس الإمبراطورية الملفوظة، ولم تكن حملة نابليون الفاشلة، ولـم تكـن مطامح (محمد علي باشا) المطموسـة، مـع العوامـل السياسـية، والاقتصادية قد خلت من التأثير على المنطقـة، وخاصـة المشـرق العربي، بل على العكس لقد عملت هذه العوامل على تحريك الشعور، وإيقاظ الوعي، وعملت أيضا على "نهضة عربيـة" فـي الاجتمـاع والسياسة والاقتصاد والثقافة، وليس من شأن هذه الأوراق التفصيـل في هذا الموضوع، وحاصل الأمر أن الباحثين من العرب والأوربيين المختصين بتاريخ الفكر العربي المعاصر، قد أطلقوا على هذه الفـترة -أي منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الثانيـة- بعصر النهضة، (انظر مثلا الندوة التي عقدت في بلجيكا، وقد صـدر كتاب يسجل وقائع هذه الندوة بالفرنسية بعنـوان النهضـة العربيـة **La Reaissance Arabe** وبعض الباحثين الآخريين يدعون هـذه المرحلة بـ(الليبرالية العربية) أو الفكر العربي في العصر الليـبرالي،

لألبـــــــــــيرت حورانـــــــــــي بالإنجليزيـــــــــــــة:
"The Arabe Thought in The leberal Age"

لقد تم إطلاق عبارة"النهضة العربية" تجاوزا، وربما أطلق علـــى هذه الفترة بـــ"النهضة" بالنسبة للمراحل التي سبقتها، والتي ســـميت بفترات الانحطاط، أي المرحلة الزمنية منذ سقوط بغـــداد (١٢٥٨م) وحتى تاريخ التحرر من السلطة العثمانية، وبداية الاحتكاك بالحضارة الحديثة.

مهما يكن من أمر التسمية، ومدى تأثيرها وفاعليتها على المراحل اللاحقة من تاريخ الفكر العربي الحديث والمعاصر، فيمكن قبول هـذه التسمية إجرائيا ونذهب إلى فهم مضمونها، وتشكلها، بـــالنظر إلـــى النقاط التالية، حيث بدأت هذه النهضة بالتأكيد على أمرين:

١) بدأت على صعيد الأدب، وبمعناه التقليدي، وبخاصة في مجـــال الشعر أو بتعبير آخر بدأت في بعث وجدان الأمة، مهملة الاهتمام بالجانب العقلي المحض أو بخلق آلية جديـــدة، لتنميـــة التفكـــير، والعقل العربيين.

٢) ارتبطت هذه النهضة بالعودة إلى الماضي،وبناء أحلام تحقيـــق الفردوس الذي زعمت الاتجاهات الدينية الإسلامية أنه تحقق فـــي عهد النبي، والخلفاء الراشدين أو العصر الذهبي لدى الاتجاهـــات الفكرية الأخرى، (عهد هارون الرشيد، والمأمون، والفرق الدينية المستنيرة، كالمعتزلة والأشعرية...الخ) أما الصراعات الكـــبرى التي بدأت على صعيد الأدب، وإثارة الجانب الوجداني في حيـــاة الأمة، فقد تجلت بين المحافظين/ والمجددين في الشعر العربـــي، وكان المثل الأعلـــى لـــدى الشـــعراء المحـــافظين هـــو تقليـــد القدماء،(الكلاسيكية)، والمثل الأعلى لدى المجددين هو اســـتلهام الحياة الحديثة، واستلهام المدارس الأدبية في الغرب.

لقد اعتبر الشاعر "خليل مطران" مجددا، واعتبر "حافظ" مقلدا، واعتبر "جبران" مجددا في النثر، و"صادق الرافعي" مقلدا...الخ.

مع ذلك فمن تضاعيف هذه النهضة التي بدأت عاجزة عن خلق تقدم عقلي -علمي- نقدي. تحرك وعي وطني قومي-إسلامي تجاوز سياسيا النهضة الأدبية.

فظهر تياران كبيران في منتصف القرن التاسع عشر ولازال حتى يومنا هذا، أعني:

١-التيار الديني الإصلاحي -الأفغاني- محمد عبده- رشيد رضا- خير الدين التونسي - الفاسي- الكواكبي..الخ. وامتداد هذا التيار إلى يومنا هذا في شكل: المحافظ والمتشدد والمعتدل والمستنير (إسلاميا).

٢-التيار الليبرالي (سياسيا) وفكريا (العلماني) - شميل - فرح- لطفي السيد- سلامة موسى...الخ.

جرت العادة عند الباحثين -كما يقول الدكتور حسن حنفي- على وضع قسمة ثلاثية لروافد النهضة العربية، وهي تمثل مواقف حضارية، أي: الموقف من القديم والموقف من الغرب، والموقف من الواقع، وبعبارة أكثر دقة:

((١- الحركة الإصلاحية/ إحياء القديم. وتمثل الغرب..وتغيير الواقع.

٢ – الفكر العلماني العلمي/ ثورة على القديم، تمثل الغرب وتغيير الواقع.
٣–الفكر السياسي الليبرالي/ تمثل القديم، وتمثل الغرب من أجل بناء الواقع))(٢٤).

في آخر كتاب وقفنا على عرض له في ملحق جريدة البيان(دبي) ٦/٣/٢٠٠٠م حول حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة، يرى الدكتور (نعيم اليافي) أن خطاب الإصلاح الديني في عصر النهضة تميز **بثلاثة ألوان**:

أ- **الخطاب الفقهي** : ويتصف بالتقليد والمحافظة ورفض الاجتهاد وكونه خطابا مغلقا مكتفيا بذاته.

ب–**الخطاب الصوفي**: الذي نشأ، وظل–مع استثناءات ضئيلة– في نطاق الزهد، والإحسان والهروب من المسؤولية السياسية الاجتماعية، وهو خطاب استلابي يلغي العقل.

ج – **الخطاب الإصلاحي** (الأفغاني– عبده – النديم -- الكواكبي -- المغربي): انطلق الخطاب من الإسلام ومن القول بالرجوع إلى أصل الدين قبل أن تشوهه اختلافات المصالح، لقد مال رجال إلى تفضيل العقل في حالة التعارض مع الشكل، ولكن "دون تحييد النقل" –الجملة بين قوسين صغيرين من إضافة صاحب هذه الأوراق.

إن القاسم المشترك بين روافد النهضة العربية التي أشار إليها الدكتور حسن حنفي المذكورة منذ قليل، هو: المحاولة التوفيقية، أو التأكيد على الفكر التوفيقي، والقائم على التوفيق بين: التراث العربي الإسلامي، والثقافة النصية(الإسلام والحضارة الحديثة)، أو بين –ما أشيع منذ عقدين من الزمان–بالأصالة والمعاصرة.

الواقع لم يرد العرب والمسلمون منذ بداية انفتاحهم على الحضارة الحديثة إحداث قطيعة مع التراث، وثقافة النص، بل كانوا ولازالوا ينظرون إلى هذين المظهرين: التراث وثقافة النص، على أنهما تعبير عن الهوية، والذاتية العربية الإسلامية، وتصوروا أنه ليس ممكنا التخلي عن هذه الهوية في سبيل الأخذ بمقومات الحياة الحضارية الحديثة. وقد ظل العرب والمسلمون فريسة هذه التوفيقية، أو حتى التلفيقية دون الانتقال إلى مرحلة الثنائية الصراعية، وما ينتج عنها من تطور، أو إنتاج حضاري جديد مع الأخذ بمكتسبات العقل الغربي.

قيل في الصفحات السابقة أن النهضة العربية الحديثة بدأت أدبيا، أي في إثارة الحياة الوجدانية للأمة، وهذه البداية الفكرية الأدبية تعني ضمنا إهمال، وعدم تركيز على الجانب العقلي، وإذا عرفنا الشعر على أنه "وجدان" فالنهضة في خطابها الأولي، كانت خطابا وجدانيا، وفي إثبات الحياة الوجدانية نفي للحياة العقلية، ومما عمل على تأكيد الخطاب النهضوي الوجداني، ثقافة النص الدينية القائمة أيضا على الاعتقاد، أي الإيمان الديني، والإيمان في جوهره وأسسه ، موقف شعوري، انفعالي(وجداني).

وسواء كان الخطاب النهضوي أدبيا، أم معتمدا على ثقافة النص، فهو توفيقي وهو خطاب يستبعد المعقول، ويمهد الأرضية للهجوم على الاتجاهات العقلية والأنشطة العقلية المستقلة، أو في أضعف الحالات، يعمل مثل هذا الخطاب التوفيقي على تهميش النشاط العقلي، وهو ما جرى ومازال يجري في مؤسساتنا التربوية والثقافية حول المطالبة بإلغاء التعليم والنشاط الفلسفي.

الهجوم على العقل في الثقافة الأوربية وانتقاله إلى الثقافة العربية الحديثة معاصرة:

منذ بداية النهضة العربية، والانفتاح العربي الحديث على الحضارة الغربية بدأت النقول، والترجمات، فيها الغث والسمين، تتم حسب مبادرات فردية ورغبات معرفية شخصية، من اللغات الأوربية إلى العربية. وكانت هذه الترجمات ولاتزال تلبي حاجة الفكر العربي إلى اكتساب الأفكار الحديثة، والواقع بدأت هذه الترجمات -وحتى يومنا هذا- تتم عشوائيا، ولا ترعاها مؤسسات، وتتم بلا ضابط، ولا إدراك واع لحاجة الفكر العربي، والمجتمعات العربية من نقل "تراث عقلي" من اللغات الأجنبية .. وحتى أن الجامعة العربية ممثلة في الدائرة الثقافية، عملت على تكليف الدارسين بترجمة روائع الفكر الأوربي، في الستينيات من القرن الفائت، ولكن توقفت هذه المحاولات، ولا يخفى أن هناك بعض الاستثناءات التي تمت بحسبها ترجمة بعض الأعمال العقلية من قبيل أعمال "فولتير" و"مونتسكيو" و"ديكارت" و"اسبينوزا" و"كانت" و"لايبنتيز" و"هيجل" و"ماركس" و"سارتر" و"كامي" و"كولن ولسون"، ولكن هذه الأعمال لم تنشر في طبعات مبسطة وشعبية. وظلت تدور ضمن الأطر الثقافية النخبوية والأكاديمية.

تركت هذه الترجمات أثرها الواضح في أعمال الكتاب والمثقفين العرب، وخاصة في جانبها الأدبي، وخاصة أيضا الجانب اللامعقول في الثقافة الأوربية، حيث انعكست أعمال "كامي" الفلسفية، و"سارتر" الوجودية، ومسرح العبث(اللامعقول)، و(أصابعنا التي تحترق) مثالا.

لقد بدا هذا اللامعقول الأدبي الأوربي وكأنه جاء تلبية لحاجة الأدباء العرب للتعبير عن الواقع العربي، والحياة العربية اللذين كانا يعانيان من تخلف عميق، والذي رآه بعض الأدباء العرب لامعقولا.

وعوضاً عن المعالجة العقلية للواقع العربي، وتحليل مشـــكلاته، ووضع حلول وبدائل، أو إثارة السؤال على الأقل في التفكير العربي، أخذت شريحة من أدباء اللامعقول العربي يصبون جام غضبهم بلغـة لامعقول. متأثرين بثقافة اللامعقول الأوربية. هذا بالإضافة إلى وقوع هذه الشريحة وغيرها من شرائح المثقفين فريســة مختلـف أنمـاط التعبير، سواء الكتابة اللامعقولة، أو في أحيان، حسب تجلي الأهواء، الاهتمام بالجانب المعقول، وهو ما دعاه الدكتور محمد عابد الجابري "الترحال الثقافي" من هذا الاتجاه الثقافي إلى اتجــاه آخـر، وأحيانـا الانتقال والترحال من النقيض إلى النقيــض، ومــن المعقــول إلــى اللامعقول، ومن الأدب إلى الفلسفة والعلم، ومن الوجودية إلى الجدلية الهيجلية، ومن الماركسية إلى الإسلام والتصوف الروحي..الـــخ. إذ كان الواقع العربي غير معقول، و"عبثي" الطبيعة وغير مقبول عقـلا، وأن كل ما فيه قد بني على خطأ، وهو واقع مأزوم سياسيا واجتماعيا وثقافيا، فهل كان الحل في التعبير عن هذا الواقع بلغة اللامعقول؟!.

لقد لبت نزعة الهجوم على العقل في الثقافة الغربية، رغبة بعض الكتاب المتأزمين في التعبير عن الواقع العربي المأزوم، والمتخلـــف بتلك اللغة.

إذ أن الأزمة ذاتية داخلية تخص الحياة العربية الإسلامية، وقـــد جاءت النقولات والترجمات، وشرائح الدارسين والعارضين للثقافـــة الغربية –في جانبها اللامعقول– كرافد من روافد هذه النهضة.

قد يعترض علينا بالقول أنه ليس محظورا على الكاتب أن يعـــبر باللغة التي يريدها، وبحسب الاتجاه الذي يتبناه، وليس محظورا عليـه الانخراط في ثقافة العصر، وباعتبار أدبيات اللامعقول هي جزء مــن ثقافة العصر، فلا مانع أن يختار الكاتب ما يشاء من ثقافة العصر.

إنه نقد وجيه، ولكن يمكن طرح سؤال نقدي مضاد له، وهو ألم يكن من الأجدى التفكير؛ للخروج من أزمة الواقع العربي، أو مواجهة هذا الواقع بأدوات أكثر جرأة وفائدة، وعلى نحو يرتضيه العقل في تغيير الواقع؟.

يرى الدكتور "نصر حامد أبو زيد" أن معادلة "النهضة " التوفيقية قد سقطت وانتهت إلى التلفيقية، وأعادتنا إلى السلفية التي حافظت على تجذرها بالالتفاف حولها دون مواجهتها، وانتهت التلفيقية أيضا وسقطت"(٢٥).

لم ينتج عن التوفيقية الإسلامية – والحضارة الحديثة تركيبية إبداعية خلاقة تنحو نحو التقدم العلمي والفلسفي.

ويتساءل الدكتور"أبوزيد" ما الذي جعل حصاد التنوير(النهضة) فقيرا؟

والإجابة -كما يعتقد- ((هو في البحث عنها في طبيعة الخطاب التنويري (النهضوي) ذاته بكل ما يتضمنه هذا الخطاب من عناصر الإيجاب، ومن عناصر السلب، والأهم من ذلك كله أن نبحث في الخطاب النهضوي عن الأسئلة المضمرة والمكبوتة، بل والمقهورة إلى حد التحريم))(٢٦).

وبتعبير أكثر مباشرة، كان الخطاب النهضوي يقترب من التراث الفكري على استحياء، وفي أحيان كثيرة بالأسلوب الخطابي والإنشائي والمدحي والتقريظي، وبعدم المس بالسلبيات، وتفكيك النصوص تفكيكا نقديا، وعدم الإعلاء من شأن العقل الذي كان له دور ما في التراث الفكري، وعدم تطوير هذا العقل إلى المدى الأقصى والاستئناس بمكتسبات التراث العقلي العالمي.

ومن ناحية ثانية شهد الخطاب النهضوي تراجعا لدى رموزه، عن المقولات التنويرية التي أعلنت في بداية الحياة الفكرية لدى هـؤلاء الرموز مثال ذلك:

د.طه حسين، التراجع عن الموقف النقدي الذي ورد في كتابه(الشعر الجاهلي) وتراجع د.زكي نجيب محمود عن الموقف النقدي الذي تمثل في كتابه (خرافة-الميتافيزيقا)..الخ.

الهجوم على العقل في الثقافة العربية المعاصرة:
(القرن العشرون)

استمر الهجوم المباشر أو الموقف السلبي العميق إزاء إعمال العقل المستقل، والذي كان قد أخذ مجراه في القرن التاسع عشر، والنهضة العربية، إلى ثقافتنا المعاصرة، وذلك بتأثير عاملين جوهريين، أعني: العوامل الداخلية(الذاتية)، والعوامل الخارجية:

١-بالنسبة إلى العوامل الذاتية، والداعية في باطنها إلى إهمال مشروع استقلال العقل الإنساني عن الموروث النصي، فقد جاءت هذه العوامل من طبيعة ثقافة المنطقة العربية والمستعربة بعد الفتوح الإسلامية، أعني ثقافة بلاد الفتح القديمة بما حملته من تفكير اسطوري، ثم ثقافة النص الإسلامي بعد الفتوح، بالإضافة إلى تقاليد فكرية مزيجة من: الروح العشائرية والقبلية، وسلطة المجتمعات الأبوية. وكل هذه الأنماط التفكيرية أو آليات التفكير لا تولي أية أهمية للعمل العقلي وآلياته.

تشطح الأسطورة بالخيال بعيدا عن الواقع الإنساني، وتحكي قصصا وخرافات تؤثر بدورها على التفكير العقلي والواقعي، وقد ألمحت هذه الصفحات إلى آلية التفكير الأسطوري (الميثوبي) والذي فصل فيه الباحثون المختصون منذ القرن الثامن عشر(٢٧).

أما بالنسبة إلى التفكير الديني الذي ينطلق من نص إلهي أو روحي، أو نص أصحاب الديانات الوضعية، وحكمائهم، فهي نصوص تضع العقل المستقل تابعا للنص وثقافته، أو أن العقل الإنساني يعمل داخل إطار النص وثوابته المطلقة، وأن الخروج عن

النص يعني خروجا عن ثوابت أمر بها الله تعالى، ويجب أن تلجم كل محاولة عقلية إنسانية عاملة خارج إطار هذا النص.

العقل هو نعمة الله -تعالى- وهبها الله للبشر، وللعقل حدوده التي لا يجب عليه أن يتعداها، ومن يتعدى حدود الله، فأولئك هم الكافرون.

فالأمر محسوم دوما لصالح النص وشروحه وتفسيراته وسنن أنبياء الله.

٢-العوامل الخارجية: استمرار اختراق الغرب السياسي والثقافي (القرن العشرون):

شهد القرن العشرون، في نصفه الأول حربين عالميتين (١٩١٤-١٩١٨)، و (١٩٣٩ - ١٩٤٥) كان لهذين الحدثين المأساويين أثرهما المدمر على أوربا، وآثارهما أو مضاعفاتهما على المستعمرات الأوربية في آسيا وأفريقيا (التحرر من الاستعمار، ونشوء تبعية جديدة له). ضربت هاتان الحربان صميم بنية الحضارة الأوربية القائمة على العقل والحرية. وتغلغلت الشكوك في أعماق الغالبية المطلقة من الأوربيين، حول مصير الحضارة التي بناها الإنسان منذ مئات القرون، وظهرت في النصف الأول من هذا القرن نزعات سياسية-اقتصادية، تمثلت في النازية (المانيا) والفاشية (إطاليا)، والشموليات الشيوعية (عهد ستالين)، وما بعده في دول المعسكر الاشتراكي الشيوعي (سابقا).

كذلك ظهرت القدرة الأمريكية كقوة عالمية على المسرح العالمي قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية، وشهدت هذه الفترة زراعة الكيان الإسرائيلي(١٩٤٨)، وبروز المشروع الصهيوني، تعويضا -كما يزعم بعض المؤرخين- عن الضحايا اليهود من قبل أوربا في الحرب العالمية الثانية والنازية خاصة، حيث يرد بعض المؤرخين

أرقاما فلكية للقتلى الذين سحقتهم النازية الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية.

الخلاصة: لقد شهدت هذه المرحلة، (أي منذ بداية القرن إلى بداية الستينات)(٢٨)، الوجه البربري للحضارة الغربية، وكانت آخر نقطة سوداء في الوجه البربري لهذه الحضارة: الحرب الفيتنامية، والكوريتين، وكمبودية (جنوب شرق آسيا).

أما الوجه الآخر لهذه العملة الأوربية-الأمريكية الحضارية، فيعكس تقدما في العلوم، والفنون، والآداب، والفلسفة، والعلوم الإنسانية...الخ.

ظهر على مسرح القرن العشرين في الغرب الثقافي والعلمي الظواهر التالية، وانتقل تأثيرها الفعال على الثقافة والنقد العربيين في هذا القرن:

ظاهرة الفيلسوف نيتشه: ينهي الفيلسوف الألماني نيتشه(١٩٠٠) القرن التاسع عشر بوضعه آخر مسمار في نعش العقل حيث وقف موقفا مضادا له.

أما "فرويد" (١٩٠٠) فعمل على التركيز الشديد في إظهار الأهمية الكبرى لظاهرة اللاشعور (اللاعقل) وأثره في الحياة النفسية، وتبع "فرويد" في اتجاهات أخرى في علم النفس ووضع الإصبع على ظواهر أخرى، فكان"آدلر" وبيانه لأثر عقدة النقص ودورها في حياة الإنسان النفسية، ثم "غوستاف يونج" وإظهاره لدور اللاالشعور الجمعي، ودوره في قيادة روح الجماعة، ثم دور الأسطورة والرمز في حياة المجتمعات البشرية.

في العلم الرياضي وضع العالم إنشتاين (١٩٠٥) نظريته النسبية في المكان والزمان الرياضيين، والفيلسوف الفرنسي"برغسون" يتحدث عن الطاقة الروحية وأثرها في اندفاعة الحياة بعفويتها دون الاهتمام بالعقل ودوره في قيادة الحياة البشرية وتركيز الأخير على الزمان السيكولوجي.

وفي الفلسفة، ظهرت صرعة الوجودية وامتداد تأثيرها في الأدب.

وفي الاقتصاد والسياسة والأيديولوجية، اندفعت الماركسية في تحريك المجتمعات بهدف الثورة والتغيير، وكان للماركسية امتداد في النقد الأدبي والفني.

أما في الأدب والنقد الأدبي، والفلسفة الأدبية، فكان للبنيوية جاذبيتها لدى النخب الثقافية، هذا بالإضافة إلى تأثير بعض المدارس النقدية الأدبية مثل الرومانسية، وفي الفن ظهرت عوالم الفنون التجريدية، والتكعيبية، والطبيعية وما فوق الطبيعية، والانطباعية والسريالية...الخ.

هذا بالإضافة إلى الفنون الشعبية (الفولكلور) وفنون الرقص، وفرق الغناء الأوربي والأمريكي. وكذلك تركيز الماركسية الشيوعية على فنون الطبقات الكادحة، وتراث الشعوب الفولكلوري.

هذه بشكل عام الأجواء الثقافية والفكرية والفنية في الغرب والشرق الأوربيين، وأمريكا، في القرن العشرين، وكلها لا تولي العقل المستقل تلك الأهمية التي كان القرن الثامن عشر والتاسع عشر قد أولاهما له، بل لقد وقفت موقفا عدائيا ضده.

انتقال العداء للعقل في القرن العشرين إلى:
الثقافة العربية المعاصرة

تلقف المثقفون، والمؤلفون والكتاب العرب كل ما هب، ودب من الثقافة الأوربية والأمريكية، والاشتراكية والماركسية منذ بداية هذا القرن، وما وصلت إلى الساحات العربية من نقول وترجمات، وبالإضافة إلى الاطلاع المباشر على اللغات الأجنبية نقلا، واقتباسا، وسطوا على الأفكار، والموضوعات: سواء على المستوى الأكاديمي في الجامعات العربية أم في الكتابة العامة.

((منذ بدايات هذا القرن تمسك الدكتور طه حسين بالموقف النقدي إزاء التراث العربي في الشعر الجاهلي خاصة، والاستفادة من دراسات أحد المستشرقين البريطانيين "مرجيليوت"، وكان كما رأى الأستاذ "حنا عبود" في مقال ناقد أن القرن العشرين هو قرن "طه حسين" في الثقافة المصرية..(٢٩).

وتركت الرومانتيكية الإنجليزية والفرنسية أثرهما في مدرسة "الديوان"، والمهجر من أمثال "الياس أبوشبكة" و"مارون عبود"(٣٠).

كذلك ينتقل النقد السيكولوجي في الأدب، فيستفيد منه "عباس محمود العقاد" في دراسة شعر ابن الرومي (٣١).

- **الماركسية:**

((بعد الحرب العالمية، وانفتاح الاتحاد السوفيتي على شعوب آسيا وأفريقيا، ظهر أعلام في النقد الماركسي، من أمثال "حسين مروة" و"عبد العظيم أنيس" و"محمود أمين العالم" و"محمد دكروب" و"شحادة الخوري" و"الياس مرقص"...الخ(٣٢).

وقد احتذى هؤلاء حذو الماركسيين في التحليل والنقد "العلميين الواقعيين" وأخذوا بالنقد الاجتماعي، ثم أخيرا بالشكلانية والألسنية، "جورج لوكاتش".

• **الوجودية:**

كذلك حدث بعد الحرب العالمية الثانية ما يشبه الغزو من قبل النظريات الأدبية فكانت مصر سباقة إلى الوجودية.

فمنذ الأربعينيات ظهر "عبد الرحمن بدوي" بمذهبه الوجودي الخاص، وتوسع في بسطه وعرضه في كتبه، ومؤلفاته المبتكرة(٣٣).

وتوالت الترجمات الوجودية تصدر في القاهرة وبيروت منذ منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، أمثال (دروب الحرية، والدوامة، والذباب، والأفواه اللامجدية، وأناسارتر والحياة) لسيمون دوبوفوار، وكذلك أعمال البير كامي في الغريب، والإنسان المتمرد، وأسطورة سيزيف، وقد تلقف الأدباء والمثقفون العرب أفكار الوجودية. انظر "مطاع الصفدي" مثالا.

وكذلك تظهر ترجمات لبعض أعمال الفيلسوف "برغسون" ودراسات حوله في مصر بالإضافة إلى الرسائل والأبحاث الجامعية حول هذه الأعمال وأصحابها.

• **البنيوية:**

في السبعينيات كانت البنيوية تحتضر في فرنسا، وفي السبعينيات لاقت رواجا في البلدان العربية، وخاصة في النقد الأدبي.

ولابد والأوراق هذه تشير إلى مختلف الاتجاهات الفكرية والثقافية التي دخلت الثقافة العربية المعاصرة، أن نذكر محاولات بعض المشتغلين بالفلسفة في مصر، ومنذ بداية القرن وما عملوه من نقل

كثير من أعمال الفلاسفة الغربيين، والتعريف بهم (سلسلة نوابغ الفكر الغربي) وكذلك محاولات "زكي نجيب محمود" في التعريف بالوضعية المنطقية.

- **الفرويدية:**

لم يكن حظ مدرسة التحليل النفسي(فرويد، آدلر، يونج) أقل شأنا من غيرها من التيارات الثقافية الغربية نقلا لها وتأثرا بها، لقد تمت ترجمات لأعمال مهمة في الستينيات من القرن الماضي لـ"فرويد" كـ"تفسير الأحلام" و"ثلاث رسائل في نظرية الجنس" و"حياتي والتحليل النفسي" و"محاضرات في التحليل النفسي" و"ما فوق مبدأ اللذة"..الخ، ثم نشرت في هذه الفترة أيضا أعمال جماعة علم النفس التكاملي،(يوسف مراد)، وترجمة كتاب جيلفورد (ميادين علم النفس).

وجاءت دراسة الدكتور مصطفى سويف (الأسس النفسية للإبداع الفني)، وترجمات قام بها (عثمان نجاتي)، و(اسحق رمزي)، و(جميل صليبا).

هذا على صعيد العلوم الإنسانية(علم النفس) وفي علم الاجتماع ترجمت بعض أعمال "دوركهايم" (قواعد المنهج)، وفي التاريخ بعض أعمال "توينبي" و"اسوالد شبنجار" في فلسفة الحضارة، هذا بالإضافة إلى عمل "البير شفيستر" في فلسفة الحضارة، و"كاسيرر" في (مقال في الإنسان) وفلسفة الحضارة.. وترجمات زكي نجيب محمود..الخ.

كانت جميع هذه الترجمات عن الثقافة الأوربية والأمريكية بالإضافة إلى أعمال في الثقافة الاشتراكية والماركسية، وصدور عدد كبير عن دار النشر في موسكو (دار التقدم من شأن النخب الثقافية، والأكاديمية في الجامعات والمهتمين بالنتاج الثقافي).

الملاحظ أن حركة الترجمة والنقول الثقافية الأجنبية، كانت الترجمات للأعمال التنويرية والعقلية أقل حظا بكثير من النقل عن التيارات اللاعقلية، وهذه التيارات الأخيرة أي اللاعقلية تمثلت في جميع التيارات التي نقل عنها: كالوجودية، والفرويدية، والماركسية، وعلم النفس، وتخلو هذه التيارات التي تم الاندفاع نحوها من قبل النخب العربية المثقفة من التركيز على التفكير العقلي المستقل، وباستثناء ترجمات تمت في هذه الفترة أيضا لبعض أعمال فلاسفة القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، العقليين، كـ"ديكارت" (التأملات) و(قواعد المنهج) وعمل المترجمون العرب على نقل بعض الفلسفات العقلية لكل من "لايبنتز" و"كانت"..الخ.

وفي هذه الفترة عينها ظهرت سلسلة نوابغ الفكر الغربي (الفلاسفة) مع وضع نصوص بالعربية والأجنبية في آن واحد في كتب هذه السلسلة.

في الأربعينيات من القرن الماضي ظهرت أطروحات حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية والعراق والأردن..الخ.

وفي مطالع الخمسينيات من القرن الماضي ظهرت على الساحات العربية، وخاصة في المشرق العربي الحركات السياسية الثورية والتقدمية واليسارية، وهيمنت على الشوارع العربية، حاملة ألوية التحرر والتقدم ومقاومة الإمبريالية العالمية وحاولت خلق قطيعة شكلية مع الماضي وألقت بخطاباتها الثورية في كل مكان، وعملت كذلك على تثوير التراث العربي الإسلامي.

بدأت هذه الحركات بكتيب الرئيس الراحل "جمال عبد النصر" (فلسفة الثورة)، وفيه يحدد المؤلف التوجهات الأساسية للعمل السياسي، فكان الكتيب بمثابة نص إيديولوجي عربي على الصعيد القومي العربي.

استطاعت الروح الثورية تحريك الوجدان العربي، دون تغيير جذري في رواسبه العقلية أو إثارة الأسئلة الناقدة حول مضامين التراث الماضي، بل ظلت الرواسب التراثية رابضة في قاع المحيط الفكري.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت الحركات الأيديولوجية الثورية تفرض ذاتها وتعرض مشروعاتها في التنمية الثورية للمجتمعات العربية، مع حرق المراحل التاريخية، عاملة على تجاوز الزمن، والتخلص من الإرث الاستعماري.

برزت على السطح "الأيديولوجيات النضالية" والمقاومة المباشرة للإمبريالية واختراقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية"(٣٤).

وفي هذا الوقت تحركت التيارات الإسلامية بثورية مضادة عاملة على مقاومة: الشيوعية والاستعمار (الإمبريالية) أو الغرب.

وبدأت الكتب تصدر تباعا في هذا الاتجاه، انظر على سبيل المثال (الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي)د.محمد البهي، (لا شيوعية لا استعمار) عباس محمود العقاد...الخ.

وضمن هذه التيارات الإسلامية ظهرت حالة الانبهار إزاء الغرب بصورة معاكسة، أي بطريقة الاستفادة من الحداثة وفلسفاتها، لإيجاد المقابل الموضوعي لمقولات الحداثة الغربية في التراث الإسلامي، مثال (اشتراكية الإسلام)، و(الديمقراطية في الإسلام)، و(الحرية في الإسلام)، و(الاقتصاد والإسلام)..الخ.

استقبال التيارات الإسلامية والشارع العربي الإسلامي للحداثة الغربية (أسلمة التقنيات)

لم يجد الشارع العربي المسلم غضاضة، بل لقد هرع وبعفوية كاملة لامتطاء صهوة التوفيقية في الفكر والممارسة بين الحداثة والتقليد، بين الماضي والحاضر، تأكيدا لما يزعمه من إثبات، وحفاظ للهوية، وقد عمل هذا الشارع منذ بداية احتكاكه بتقنيات وآلات الصناعة الغربية، وبدءا من دخول الدراجة الهوائية والسيارة، وحتى يومنا هذا، ودخول عصر الإلكترونيات والإنترنت والفضائيات ومحاولة دمج معالم الهوية العربية الإسلامية في قلب التطورات التكنولوجية.

ولم يجد المواطن في مجتمعاتنا غرابة في امتطاء أحدث الابتكارات واستخدامها في أن يسبغ أو يلصق، أو يطعم الإبداعات الحديثة بعبارات دينية، أو آيات من الذكر الحكيم، فنحن نقود السيارة من أحدث الابتكارات في عالم السيارات، ونضع نسخا من القرآن الكريم، ونسخا من أحاديث النبي(ص)، و(رياض الصالحين) أو مجموعة من أشرطة تسجيل للآيات القرآنية، حفظا وأمنا لأرواحنا من مفاجآت استخدام التقنيات، وبالتالي إثباتا لوجودنا الحضاري المقابل للتقدم الغربي. تملأ آيات من القرآن الكريم، وعبارات ومفردات من التراث العربي الإسلامي جوانب السيارات، وداخل المحلات التجارية، وعلى جوانب الطرق العامة الحديثة، وفوق الأبراج الشاهقة، والأبنية السكنية، من قبيل: ما شاء الله، سبحان الخالق، سيري فعين الله ترعاك..الخ.(٣٥).

لقد أصيب الشارع بنوع من الاستكانة لهذا الموقف الموفق، والملفق بين التقليد كموقف فكري، والحداثة القادمة من بلاد الكفار،

والبلاد التي أنعم الله عليها في الحياة الدنيا، ولكنـــها ســتنال حتمـا جزاءها في الدار الآخرة حيث ينتظرها عذاب يوم عظيم.

أما على المستوى الاحتفالي الجماهيري والشعبي، فالمـهرجانات والمسيرات الشعبية وغيرها من الأنشطة العامة، فقد لاحظنا-ولانزال نلحظ- هذه الظاهرة التوفيقية بين الماضي والحاضر بين "أصالتنـــا" ومعاصرة الحضارة الحديثة.

مشاريع أسلمة المعرفة كرد فعل غير عقلاني

ماذا تعني أسلمة المعرفة؟

وضع الدكتور "محمد عمارة" أحد الإســلاميين، كتابـاً بعنـوان (إسلامية المعرفة، ماذا تعني؟) يقول في الكتاب: ((تعنـــي إســلامية المعرفة إبراز العلاقة القائمة بين الدين الإسلامي وبين معارف العلوم التي يبدعها الإنسان المتدين بالإسلام. فالعقيدة الإسلامية من خــلال منظومتها الشاملة إنما تمثل "المنظار" الذي يرى المعتقد بها الكــون، والاجتماع من خلال عدساته، فتكون العلاقة الوثيقة بين هذه العقيــدة وبين المعارف والعلوم التي يبدعها هذا الإنسان)) "عن عرض لكتاب الدكتور محمد عمارة في صحيفة الخليج١٩/٥/٢٠٠٠م.

إن جوهر ما يعنيه الدكتور "عمارة" في تعريفه الســابق لعبــارة أسلمة المعرفة: أنه ليس من انفصال بين إبداعات الإنســان العلميــة والإنسانية (من العلوم الإنسانية) وبين العقيدة، أي أن معايير العقيـدة، وأساسها الإيمان، ومحدودية العقل البشري تملـــي شــروطها علـى المعارف والمعلومات الإنسانية، وبالتالي يجب ألاّ يكــون هنــاك أي تعارض بين أركان الإسلام وأسس العقيدة، ونتاج الأفكار، وبتعبــير أخير، لا استقلال للعقل البشري في إنتاجـه عـن الإيمــان، وهــو

ما يعارض كل ما ذهبنا إليه في هذه الصفحات، ورغم أننا نفهم هــذا الموقف المتدين، ولا ندينه، ولكننا نختلف معه، بل نحن إزاءه علـــى طرفي نقيض؛ ولأسباب تحدثت وستتحدث عنها هذه الأوراق..

يعرف الجميع أن العلوم، وتطبيقاتها التكنولوجية، كلاهما من تقدم العقل الإنساني. (انظر إرهاصات في الحضارات الشرقية القديمـــة، وتجربة الفكر العلمي في الحضارة العربية الإسلامية) ولكن لقد شــهد التقدم العلمي ذروة عطائه في العصـــور الحديثــة فـــي الحضـــارة الغربية(الغرب،أمريكا، على وجه الخصوص).

لم يكن للدين المسيحي في الغرب أي دور فـــي التقــدم العلمـــي والتكنولوجي، بل على العكس فقد كان له دور المحبط لعملية التقـــدم هذه، في فترات تاريخية مؤرخة في تاريخ الغرب، مع اســـتثناء مـــا وضعه عالم الاجتماع "ماكس فيبر" حـــول دور البروتســـتانتية فـــي تطوير الفكر الرأسمالي والأخلاق الغربية في العصر الصناعي، ودفع البروتستانتية لعجلة هذا التقدم الأخير.

أما بالنسبة إلى الدين الإسلامي فقد كان لتوهجه الأول أكبر الأثر في وضع عجلة التقدم الحضاري للشعوب العربية والإسلامية. حيــث أوجد الأرضية الصالحة، والمناخ الجيد لانطلاق العقـــل الإســـلامي، وإبداعه لمختلف جوانب الحضارة طوال قرون أربعة في العصـــور الوسطى.

ولكن ما يجري في عصرنا هذا ليس مشروعا حضاريا بكـــامل مواصفاته، أو شروطه التحتية والفوقية، بل هو محاولـــة مقصـــودة لمسخ تقدم العقل العلمي والإنساني(من العلوم الإنســـانية) وتجيـــيره لصالح تيارات سياسية تأخذ طابعا إسلاميا، وبمعنى آخـــر محاولـــة وضع الطابع الإسلامي على مختلف نتاجات التقدم العقلي الحضـــاري القادم إلينا من الخارج، فهناك الكثير من المؤسسات المشتغلة حاليـــا

بأسلمة المعرفة في مصر، والسودان، والأردن، والولايات المتحـــدة وبريطانيا، وألمانيا، والباكستان، وماليزيا، تمولها الـــدول النفطيـــة، والجمعيات الخيرية الأهلية الإسلامية، والبنوك الإسلامية.

لقد عقدت الكثير من الندوات والمؤتمرات في سبيل الترويج لـهذه المشاريع لأسلمة: علوم الحياة، والعلوم الاجتماعية، والســيكولوجية، وثمة مجلات متخصصة في هذا المجال تصدر حاليا وتــوزع علـــى نطاق واسع(٣٦).

لقد جرى الحديث منذ الستينيات مـــن القـــرن المـــاضي حـــول ديمقراطية الإسلام، واشـــتراكية الإســـلام، والاقتصـــاد الإســـلامي، ونظرية عربية في علم الاجتماع، وعلم النفس القرآني وعلم النفـــس الإسلامي، وكذلك حشو كتب العلوم والفيزيـــاء والكيميـــاء، وكتـــب الرياضيات بأمثلة إسلامية (الكتب الإسلامية في السعودية والإمارات) وأخيرا توظيف الأموال والبنوك، وشركات التأمين علـــى الطريقـــة الإسلامية، وكل هذا يجري توظيفه (سيكولوجيا) لكســـب الشـــوارع الإسلامية وإقناعها بأن كل شيء يجب أن يكون "مسكونا بالإســـلام"، وكذلك (سحب البساط من تحت أرجل أصحاب التيارات الإســـلامية المطالبة بالسلطة، من ناحية ثانية)، وحاصل القول ((إن العقلية التـــي تكمن وراء محاولات أسلمة المعرفة تدعي بأنها تقوم بذلـــك حفاظـــا على الخصوصية، وتشجيعا معرفيا واجتماعيـــا وعلميـــا للصحـــوة الإسلامية))(٣٧).

وهي تعتبرها إرهاصات لمشروع حضاري إسلامي قـــائم فـــي الوهم(٣٨)، وتفيد المعرفة الإسلامية لدى أصحابها استقلالا حضاريا – كما يقولون– فهؤلاء يسطون على مناهج العلوم الاجتماعية الغربيـــة كإطار علمي يختبئون خلفه، يجدون أنه لا يمكن الفرار منه ويدمجون بعض النصوص الإسلامية والاستشهادات بنصوص القرآن الكريـــم وأحاديث النبي داخل هذه الأطر المنهجية المســـروقة وهـــم بذلـــك

يقومون بمحاولة باطلة تفصل بين الإطار (المنهج) والمضامين، ويقومون بذلك بفصل المناهج الغربية من سياقاتها الحضارية يجردونها من محتواها، وصولا إلى ادعاء زائف لخصوصية حضارية عربية إسلامية (٣٩).

إن أصحاب مشاريع الأسلمة يأخذون بطرف من أطراف التقدم العقلي، ويرمون جانبا بقية الأطراف بحجة أنها خارجة عن العقيدة، أو أنها تنافيها أو أنها لاتتكيف مع واقعنا، وخصوصيتنا الإسلامية.

((لقد ظهرت بعض المطالب في مصر، إثر دعوات من الأزهر بأسلمة الآداب والفنون والعلوم))(٤٠).

الخلاصة: "إن تثبيت إسلامية المعرفة عملية دائرية، تفترض المجتمع كاملا مكتملا منذ بدايته، ومستقرا في قراءة كيانه على مطابقة مع المتطلبات الشرعية وأنه يمكن بالتالي قراءة المجتمع على طريقة قراءة مجتمع يثرب بحسب رواية خيالية مجتزأة لهذا المجتمع وبواسطة قراءة الشريعة(أو النص) بناء على هذا الافتراض تصبح معرفة الماضي، معرفة للشرع(ثقافة النص) ومعرفة كهذه تعني معرفة المجتمع في حقيقته الأولى والحاضرة.

يجري فهم المجتمع بفهم الشريعة، وفهم الشريعة بفهم المجتمع في دائرة مغلقة لاخارج لها إلا الكفر والخروج عن الأصول.

واعتبر الاطلاع على ثقافة الآخر بدون المواءمة مع ثقافة النص، بمثابة خروج عن إجماع الأمة، وخروج عن أسس العقيدة والإيمان(٤١).

يعتبر أصحاب أسلمة المعرفة، وغيرهم من أصحاب التيارات الدينية السلفية أن الإعجاب بالآخر، هو انبهار، وهذا الانبهار هو

موقف طفلي صبياني غير راشد، وغير واع لجوهر الحضارة الغربية القائم على "عبادة" و"الطاغوت"كذلك يقول أصحاب التيارات السلفية، وكذلك يجهل المنبهرون بالحضارة الغربية.إن هذه الأخيرة إن هي إلا متاع الغرور"

ومن هذه الاعتبارات تصدر تهمة الانبهار التي توجه إلى المثقفين المنبهرين وهي تهمة مآلها. محاكمة العقل والضمير، والتي يمكن أن تؤدي في أشد حالاتها إلى دعوة المؤمنين إلى استئصال شأفة الضالين المنبهرين بالكفرة وبحضارة الملاحدة.

الواقع إن أصحاب أسلمة المعرفة هم بدورهم منبهرون بنتاج الحضارة الحديثة من معرفة، وعلوم وتكنولوجيا.

بدليل أن كل ما يصدر من إبداع، أو ابتكار علمي، تكنولوجي ومعرفي، يبحث أصحاب التيارات الدينية عن أصول لهذه الإنتاجات في النصوص الدينية، والتراث العربي الإسلامي، وهذه الاستجابة أو رد الفعل هو نمط من الانبهار المخفي، فضلا عن محاولات التيارات الإسلامية البحث عن قصب السبق لكل منتج حضاري، وللبحث عن أصوله في نتاج الحضارة العربية الإسلامية، وأخيرا يلاحظ أن أصحاب التيارات الدينية هم أول المستهلكين لنتاج هذه الحضارة التكنولوجي (الأدوات والوسائل والتقنيات الحديثة المختلفة) وما عبارات مثل: (الديمقراطية في الإسلام)، و(الحرية في الإسلام)، و(اشتراكية الإسلام) إلا تعبير مخفي عن انبهار بالغرب، وهو يترجم بإيجاد المعادل الموضوعي لمنتجات الحضارة في النص، وثقافته.

هناك عملية إجهاز على العقل في العالم العربي، وخلفيـــة هــذه العملية بدأت بوادرها، داخل المنطقة العربيـــة أو المســتعربة بعــد الفتوح، وذلك بالتحديد بعد ظهور الأديان صاحبـــة النــص، حيــث نهضت في أنفس أصحاب هذه الديانات الثلاثة مـــا يمكــن دعوتــه بـــ:عقلانية النص في مواجهة"العقلانية الإنسانية المستقلة" عن النص.

وما يهم صاحب هذه السطور هو إلقاء الضوء على ظاهرة نفـــي العقل في المناخ العربي الإسلامي.

لقد بدا لبعض الباحثين أن محاولة العقلنة التي قامت بها بعـــض فرق الإسلام والفلاسفة (رغم مرجعيتها النصية، والتي كان يمكن لها أن تتطور وتتقدم نحو الاستقلالية) ليست سوى محاولة متواضعـــة، سارت على استحياء؛ خوفا من السلطة الدينية-السياسية، واســتمرت هذه المحاولة البسيطة حتى أيام"ابن رشد" حيث بدت توفيقيـــة غــير حاسمة بين العقل الحر المستقل، والعقل النصي الديني، حتى جــاءت الضربة القاضية المتمثلة في ردة الإمام الغزالي(٤٢). وهجومه العنيف على الفلاسفة الذين أرادوا استخدام العقل "بشطط" وذلك فـــي كتابــه المشهور (تهافت الفلاسفة) أي بتعبير عصـــري: تــهافت المحاولــة العقلية المستقلة في فهم اليقينيات الكونيـــة-القضايـــا الميتافيزيقيـــة- استمرت هيمنة السلفية الدينية الإسلامية بعد وفاة الإمـــام الغزالـــي)، واستمرت العقائد الشيعية النصية في النظر إلـــى العقــل فـــي أرض الإسلام، وكذلك ظل الترجيح منذ العصور العربية الإســـلامية إلـــى عصرنا هذا، يميل بشدة إلى جانب النص حرفيا متشددا حينا أو معقلنا للنظر تارة أخرى.

أما نفي أو اغتيال العقل في أيامنا فقد نشر الدكتور"برهان غلــون" كتابه تحت عنوان فاضح: (اغتيال العقل العربي) (١٩٨٦-بـــيروت)

يندرج هذا الكتاب ضمن السياق العام لهذه الأوراق. ولعل ما هو إيجابي في الكتاب هو اعتبار المؤلف أن الهجوم على العقل أو اغتياله، بلغته النارية عمليتان تجريان داخل المنطقة العربية ووسط الساحات العربية، تحت سمع ونظر الأنظمة السياسية، والسلطات الدينية الموالية لها (إسلام السلطة).

إلا أن الكتاب يهمل التركيز على حضارة ثقافة النص، أو الإرث الثقافي الطويل، أو حصار ثقافة النص لكل نشاط عقلي مستقل، وكون الجماهير حاملة هذه الثقافة في وجدانها، وضميرها وسلوكها مسؤولة عن الاغتيال الذي يتحدث عنه(٤٣).

وإذا توسعنا في نطاق الهجوم على العقل، واعتبرنا أن مصادرة الرأي، والتفكير المستقل هما أيضا نمط من أنماط هذا الهجوم(أو الاغتيال)، كذلك فإن الرقيب على مسارات العقل المستقل قد قام بدوره كاملا، وقد مثل هذا الرقيب رجال النص الديني من فقهاء ومحدثين، وقضاة ورجال سلطة، ولا يزال هذا الأمر مستمرا حتى أيامنا هذه، ذلك أنه وبعد خمسة عشر عاما من نشر قصة الكاتب السوري (وليمة لأعشاب البحر) يعاد طبع الرواية في (مصر) وبنشرها تقوم قيامة التيارات الدينية المحافظة، والحارسة لثقافة النص في صحن جامع الأزهر؛ بحجة أن هذه الرواية تسيء إلى العقيدة، وقد قامت مظاهرات صاخبة، ذهب ضحيتها خمسون جريحا باصطدامهم مع رجال الأمن، وقد طالب المتظاهرون بإقالة وزير الثقافة المصري -وهذا هو الهدف السياسي الباطن- لبس لبوس الدين، يسرد الدكتور حسن مدن في زاويته في صحيفة الخليج فقرة أسئ فهمها من وجهة النظر الدينية:"لقد جاء في الرواية ما يلي: ((لقد بدا ذلك الشيء المرعب والمنبئ بما سيأتي من ربيع دموي قادم، وهو يتلألأ في تقاويم العصور تحت هزات وشقشقات الأرض، وخراب الوضع البشري، يوحي بأن هذه الأرض كأنها خضعت للعنة رسمتها في غابر الأزمان لحظة أهين فيها الأنبياء الذين حملوا على

الأوثان، وتمردوا على الطاغوت وعبادة الحجر الأصم)) يعلق الدكتور حسن مدن بقوله: ((هذه لم تكن مجرد نبوءة، كان حيدر حيدر في وليمة لأعشاب البحر، يتحدث بهذه العبارات عن أفول الزمن العربي، وعن مرحلة بدا فيها أننا ذاهبون إلى الانحطاط. بيد أن حيدر حيدر وقراءه لم يتصوروا يوما أن دمه سيهدر استنادا إلى عمله الروائي الأهم الذي كان شهادة على مرحلة بكاملها ذهبنا نتيجتها إلى الهزيمة والحروب الأهلية (عن صحيفة الخليج ٨/٥/٢٠٠٠م، وانظر كذلك ٩/٥/٢٠٠٠م) في تقرير اللجنة العلمية المصرية حول الرواية جاء ما يلي:

((وليمة حيدر حيدر رواية متميزة حرفت للتحريض ولا يجوز محاكمتها من منظور أدبي، حيث تناول التقرير، فيما تناوله الفقرة التي اعتبرت مسيئة للذات الإلهية...بأنها قرأت مجتزأة)) المصدر السابق ١١/٥/٢٠٠٠م.

لقد تتابعت حلقات المسلسل، تبرئة وإدانة هذه الرواية في وسائل الإعلام والصحافة المكتوبة بعد ذلك التاريخ،انظر الخليج أيضا١٩، ٢٠/٥/٢٠٠٠م.

كذلك كتب الأستاذ "خيري منصور" تحت عنوان – لا يخلو من إثارة– في زاوية يومية ما يلي(٤٥) (انتحار عقلي): ((في إحدى العواصم العربية –لم يذكها الكاتب– يصادر الرقيب سبعين كتابا لأبرز مفكري، ومثقفي العرب في العصر الحديث، بعضهم موتى وأكثرهم من الأحياء.

وفي(طهران) لم يعد ممكنا للفرد العادي أن يشاهد ما يحدث في العالم من خلال الستالايت إذا لم يحصل على إذن مزدوج باقتناء الجهاز.

في (الأردن) يعاد النظر في قانون المطبوعات الذي أثار غضبا شديدا في أوساط الصحفيين والكتاب عند صدوره.

في (بيروت) يعلن الأب "عبو" رئيس جامعة القديس "يوسف" في خطابه السنوي أن أي تغيير يسعى أصحابه إلى توحيد كتاب التاريخ للبنان يهدف إلى إزالة الطائفية سيؤدي إلى عكس النتيجة المرجوة وسيعيد الانفجار الطائفي على نحو أشد ضراوة.

في (العراق) لا يجد المثقفون ورقا، ولا الرسامون أصباغا وقماشا ولا التلاميذ أدوات وطباشير في مدارسهم، والطباعة تتم في ظروف بالغة القسوة، والتقشف شمل الكتاب والجريدة والكتاب المدرسي.

وفي (السلطة الفلسطينية) تمنع كتب بالغة القيمة من طراز كتب "ادوارد سعيد" وعدد من المفكرين الفلسطينيين والعرب؛ لأنها تقف موقفا سلبيا وناقدا من مفاوضات (أسلو) و(بلانتيثين).

في داخل الكيان العبري، حيث يعيش مليون عربي تنشر تقارير في الصحف الغربية عن تردي أوضاع التعليم في صفوف العرب.

وقد لا يتسع المجال للتجول في اثنين وعشرين قطرا عربيا؛ للتعرف على أحوال الثقافة وحرياتها المحتقنة، وكل الملابسات التي تحيط بها. فالرقيب هو الرقيب سواء حمل اسما عربيا تقليديا أم اسما دينيا!!

واليوم يعلنون مصادرة الرقيب"لجبران" وفي القاهرة، كان مجلس الشعب قد ناقش السماح بتوزيع كتاب الفتوحات المكية لابن عربي.

في (السعودية) إن مفتي المملكة ومن حوله من رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هم الذين ينظرون في كل كتاب يدخل المملكة ويمهرون بالسماح بتداوله.

وشهد عام ١٩٩٨م مصادرة كتب الدكتور "نصر حامد أبوزيد" وأجريت محاكمته في (نقد الخطاب الديني).

وشهد عام١٩٩٩م مصادرة قصائد وديوان الشاعرة "ليلى العثمان" و"شعيب" في الكويت(٤٦). وأخيرا لقد تم تشكيل لجنة في الأزهر لفحص ومراقبة الكتب المخالفة للعقيدة، لقد بدأ هذا المسلسل الرقيب اللبناني في الثمانينيات حيث تمت مصادرة كتاب الدكتور صادق جلال العظم (نقد الفكر الديني)..ومطاردة الشاعر الهندي سلمان رشدي في (قصائد شيطانية)...الخ، وإهدار دم الشاعر.

إن الرقابة على العمل الثقافي في العالم العربي الإسلامي تدعو الكاتب والمؤلف الذي تسول له نفسه الخروج عن نصوص السلطة السياسية والدينية، أن يتنحى عن الكتابة تحت طائلة العقوبة، وقطع الأرزاق، وقطع الأعناق -إذا تطلب الأمر- ، لأن السلطة تريد أن تحمي نفسها من النقد، والتشويش والنزاعات المنحرفة، والبلبلة في صفوف الشعب المتحد في كلمته خلف قيادته الرشيدة!!.

إن مفهوم الرقابة قائم على أن السلطة السياسية الأبوية، هي الوحيدة التي تدرك مصلحة الشعب، وهي المسؤولة عن تكوينه العقلي، والثقافي، وهي أخيرا الوصية عليه، والعارفة لمصالح أفراده، إذ أن هؤلاء -بالقياس إلى السلطة- غير راشدين ولا يعرفون ماذا يفيدهم، وماذا يضرهم في الأعمال الفكرية والثقافية، إن السلطة السياسية هي ولية الأمر (وأولي الأمر) يجب إطاعتهم بعد إطاعة الله ورسوله. عملا بقوله تعالى: ((وأطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم)).

ارتبطت السلطة السياسية منذ ثبات أركانها في العصر الأمـــوي، وإلى يومنا هذا بمركزية الشخص الواحد، المتسلط: الخليفة، السلطان، أمير المؤمنين، الملك، الرئيس.... وقد عملت هذه السلطة على تلبيــة مصالحها، ومصالح الفئات التي تدور في فلكها، وعملت على تــأويل خاص للنص الديني، وعلى صناعة"عقلانية" معينة تـــبرر وجودهـــا يدعمها رجال الفقه والحديث والتفسير والقضاء وبعض الفرق الدينيــة الممالئة لوجودها في السلطة، لذلك كان من البديهي أن تناصر هـــذه السلطات السياسية على مر التاريخ العربي الإسلامي ، مسألة التوفيق بين العقل كما فهمته، وتفهمه، وبين الدين، بيـــن عقلـــها والإيمـــان، والواقع كانت هذه المسألة من المسائل الكـــبرى والعويصــــة طـــوال العصور الوسطى لمختلف أديان المنطقة الســـماوية، (انظـــر مثـــلا محاولة موسى بن ميمون في اليهوديـــة، ومحاولـــة القديـــس تومـــا الاكويني في المسيحية..وكذلك انشغال المسلمين فـــي علـــم الكـــلام، والفلاسفة بالتوفيق بين الحكمة والشريعة). نتج عن هــــذه المشـــكلة الزائفة أساسا بين العقل والدين توفيقية بين قطبين مختلفين بالطبيعـــة، لا بالدرجة(٤٧)، أي بين العقل والإيمان، إذ أن مصـــــدر الأول هـــو التفكير بمبادئ وأدوات المنطق، والبرهان والسببية العلمية، والواقـــع الموضوعي، والإيمان ومصدره: الشعور، والانفعال، والقلب، والفؤاد والحدس والتجربة الإيمانية الروحية والفردية.

كذلك نتجت عن التفكير التوفيقي هذا، ثنائيـــات شـــغلت الفكـــر العربي الإسلامي منذ العصور الأولى للحضارة العربية الإســـــلامية إلى يومنا هذا، إشكاليات ثنائية من قبيل: (العقل والنقـــل)، (التقليـــد والحداثة)، (التقليد والتجديد)، (القديم والجديد)، (التقـــدم والتخلـــف)، (الأصالة والمعاصرة)، (الاستقلال والتبعية)، (الوحـــدة والتجزئـــة)، (الأنا والآخر)، (الإسلام والعروبة)، (العلـــم والإيمـــان)، (العروبـــة والإسلام)، (القومية والإسلام)، (القطرية والقومية)...الخ(٤٨).

لقد شغلت هذه الثنائيات –ولاتزال– النسيج العام للتفكير العربـــي، وشملت أنشطته العامة والخاصة في كل مجالات الفكر والحياة.

قامت الثنائية التي ألمحت إليها السطور السابقة على تفاضليــــة، على حد تعبير "أدونيس" أي تفضيل النقل على العقل، والقديم علـــى الجديد، والتقليد على الحداثة، والأصالة على المعاصرة، وأحيانا فـــي فترات تاريخية معينة، كانت ثنائية تصالحية، وحسب اشتداد الاختراق الحضاري لعالمنا، إن التفاضلية والتصالحية جعلتا هذه الثنائية غـــير متناقضة جوهريا، بل إن هذه الثنائية كانت ولا تزال تعيش تناقضـــا سطحيا، هشا بليدا بمعنى ما، غير باعث على التوتر الخصب، وغير باعث على جدلية تقدمية، بل ظلت ولا تزال ثنائية مائعة لا صراعية، ولا مبدعة، وكانت ولا تزال من شأن النخب المثقفـــة فـــي الوســـط الإسلامي والحداثوي، وعاشها الشارع العربي ولا يزال يعيشها علـــى طريقته الخاصة بحيث أصبحت نمطا لوجوده اليومي في كل شـــيء، في المأكل والملبس، ومختلف جوانب الحياة.

ركز الدكتور"محمد عابد الجابري" نظراته فـــي تكويـــن الفكـــر العربي، وتحليل بنيته في مشروعه النقدي على هذه الثنائية، في كتابه المطول حول مقولات: (الجوهر والعـــرض)، (الأصـــل والفـــرع)، (العقل والنقل)، (لغة الخطاب ، لغة العقل)، (البيان والبرهان)...الخ. وقد عمل على تنسيق هذه الثنائيات بشكل علمي، لا يخلو من أهميـــة، ولكنه((وضع الفكر العربي ضمن أنساق مغلقة، وكان مـــاهرا فـــي تصميم هذه الأنساق على حد تعبير"السيد يسين"))(٤٩).

لكن إذا كان السيد يسين يعني بهذه "الأنساق" الثنائيات، موضـــع حديث هذه الصفحات، يمكن طرح السؤال التالي:هل خرج التفكـــير العربي الإسلامي من هذه الأنساق الثنائية أم لازال يعيـــش ضمـــن إطارها؟

ورغم جدية الدراسة"الجابرية" إلا أن كاتبنا لم يذهب في دراسته لهذه الثنائيات وإشكالياتها إلى التمرد، والثورة عليها، بل لقد سكن إليها وركن إلى تحليلها البارد، لقد ظلت دراسات الجابري مؤسساتية، وضمن الحدود الأكاديمية، لم يقترب من الخطوط الحمراء(٥٠).

قام البروفسور "محمد أركون" بتحليل عميق لهذه الإشكاليات الثنائية التي مر ذكرها، وذلك في مختلف أعماله الفكرية، وبأسلوب علمي دقيق، وأبعد غورا من "الجابري" منتحيا جانب الحرية الكاملة في البحث والدراسة(٥١).

تصدى الدكتور "محمد جابر الأنصاري" لهذه المسألة بجدية واهتمام بالغين، ووقف مندهشا أمام عجز الفكر العربي عن الحسم"في مسألة النزعة التوفيقية وذلك في كتابه المشهور(الفكر العربي وصراع الأضداد)(٥٢).

لا حاجة لهذه الأوراق إلى تكرار ما قاله الأنصاري، في نشأة مصطلح التوفيقية، وتطوره ومعادل هذا المصطلح في الفلسفات الغربية، وكذلك الآليات الذهنية للتركيب الفلسفي التوفيقي، وحبذا لو يقف القارئ على الكتاب، وكذلك بحث الدكتور الأنصاري حول الموضوع ذاته في مجلة عالم الفكر الكويتية(٥٣)، يقول الأنصاري: ((من الملفت للنظر أن الفكر العربي الحديث لم ينشغل بقضية ما، مثلما انشغل بالتوفيق بين ثنائيات: العقل/الإيمان، العلم/الإيمان، التراث/المعاصرة، الدين/القومية، القومية/القطرية، العدل/الحرية، الرأسمالية/الاشتراكية، الشرق الغرب...الخ. ورغم هذا الانشغال، فإنه لم يخرج بحسم يذكر بين هذه الثنائيات التي كانت شاغله الأساس منذ القدم، وخاصيته المميزة له بين فكر الأمم الأخرى، كما لاحظ أحد دارسي هذا الموضوع المثابرين، وهو الدكتور"زكي نجيب محمود))(٥٤).

ولقد استشهد الدكتور "الأنصاري" بفقرة للدكتور "إحسان عباس" سجلها عام(١٩٧٣) حيث يقول المذكور: ((لا أعرف أحدا ينادي بالاكتفاء بالتراث، واستخراج جميع أنماط العيش، والتفكير من خلاله، فهذا مناقض لطبيعة الحياة المتطورة، وإذا وجد -افتراضا- من ينادي به، لم يكن لرأيه أي سند فكري،فضلا عن أن سلوكه العملي في ممارسة الحياة أكبر رد على دعوته(٥٥).

يرى"إحسان عباس" من خلال مقالته أنه لابد من الجمع بين الأصالة (التراث) والمعاصرة (الحداثة)، ولابد من الأخذ بالنهجين. الواقع ليست هذه المسألة حديثة، ولا معاصرة، بل إن لها جذور في التراث العربي الإسلامي، ومرجعية النص القرآني، وهذه الثنائية وردت في عدة سور قرآنية: الدنيا/الآخرة، الثواب/العقاب، الخير/الشر، الفجور/التقوى، العقل/الإيمان، الإيمان/الكفر...الخ(٥٦).

ثم أعاد "عصر النهضة العربية" في منتصف القرن التاسع عشر طرح هذه الإشكالية، وأعاد العصر العربي الحديث والمعاصر طرحها من جديد.

ولقد أعادت الناصرية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ما قد تردد على لسان زعماء النهضة (الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، خير الدين التونسي، محمد كرد علي...) في التوفيقية بين الإسلام والمدنية، بين العرب وفكرهم، والحضارة الحديثة، بين العلم والإيمان، ويرى الأنصاري أن الناصرية كانت ثورة على التوفيقية، ولا يعتقد صاحب هذه السطور أن الناصرية كانت ثورة على التوفيقية، بل كانت ثورة في إطارها، وثورة فيها، حيث تردد مصطلح: دولة العلم والإيمان، للمحافظة على الإطار الفضفاض للنهج التوفيقي، وكذلك حافظت المرحلة الناصرية على الغطاء الديني الإسلامي للحياة العربية فكرا وسلوكا.

كذلك سجل الدكتور الأنصاري توفيقية الحركات القومية العربية، والبعث العربي الاشتراكي، وتأرجحها بين: العلمانية اليسارية، وبين الحفاظ والتأثر بالتراث العربي تحت ضغط الواقع، وكانت هذه الحركات الثورية تحت ضغط هذا الواقع تميل إلى مواقف تقليدية(تراثية)، وقد عكست كتابات "ميشيل عفلق" في الخمسينيات وحتى الثمانينيات هذا التأرجح، والتذبذب الفكري في أوضح حالاته(٥٧)، لم تجر مجاوزة، ولاتخط، أو ثورة على نطاق شامل على هذه النزعات التوفيقية المتجذرة في الفكر العربي الإسلامي، وظلت، ولا تزال مستمرة في الفكر وسلوك الأغلبية من العرب والمسلمين في أيامنا هذه.

يقول"الأنصاري" ((إن الحضارة العربية الإسلامية من ناحية أخرى، هي الحضارة الأولى بين الحضارات التاريخية الكبرى التي وفقت –وللمرة الأولى في تاريخ البشرية– بين العنصر الهلينستي الروماني وبين العنصر الفارسي الهندي الأسيوي الشرقي في نسيج واحد حضاري، فكانت بهذا المعنى مشروعا توفيقيا عالميا.. وهو مشروع جامع للروافد الحضارية الفلسفية والدينية لحضارات الشرق الأدنى القديم، التي لم تخل هي الأخرى من محاولات توفيقية، بين الدين/العقل، بين الديانات السامية بتراثها الإبراهيمي والفلسفة اليونانية بتراثها الأرسطي الأفلاطوني، فضلا عن العناصر الشرقية القديمة المتأصلة في المنطقة من: سومرية، بابلية، فرعونية بإرثها الديني والعلمي والحضاري عامة))(٥٨).

يؤكد الأنصاري في النص السابق على وجود "توفيقية" موفقة إلى حد ما في التاريخ العربي الإسلامي الكلاسيكي، ولكنها انقلبت بمعنى ما في العصر الحديث والمعاصر إلى توفيقية لا حسمية، أي متذبذبة، متأرجحة.

ويعرج "الأنصاري" نحو التوفيقية اللا محسـومة في العصر الحديث، فيقول: ((إن اتجاه الحداثة بمذاهبه المختلفة قد اضطر في العقود الأخيرة إلى التوافق مع عناصر أساسية في التراث العربي الإسلامي، خاصة بعد تراجع توجهات التحديث والعلمنة وصعود المد الديني بين الجماهير، فقد اتجه الماركسيون إلى القرآن الكريم يبحثون فيه عن مفاهيم العدالة الاجتماعية، والصراع الطبقي، والتفكير المادي الجدلي، ونحو ذلك بعد أن كان الاعتبار الديني مغيبا في خطابهم، بل عرضة للنقد والنقض.

بينما اتجه الليبراليون إلى البحث عن المصادر الإسلامية لمعاني الحرية والفردية والديمقراطية، والتعددية، الروحية الاعتقادية، إلى غير ذلك...بعد أن ظل خطابهم تغريبيا خالصا في البداية))(٥٩).

الخلاصة: إن مشكلة التوفيق بين ثنائية: العقل/النص. والتقليد/والحداثة، الأصالة/والمعاصرة، والقول بعدم الحسم بين قطبي هذه الثنائية، مشكلة في الأصل مصطنعة عاشها الفكر العربي خمسة عشر قرنا، حيث تمت صناعة مفهوم للعقل خاص بهذا الفكر التوفيقي، وأعني بالمفهوم الخاص: صناعة آلية عقلية منطقية تقبل مسلمات الاعتقاد والنص الروحي، وتبرر الاعتقاد، وتفهم النص على أنه مسلمات مقدسة وتعقل هذا النص، ولا تطالب بالانفصال والعمل مستقلة عن النص، باعتبار أن "عقل النص" لا يتعارض والعقل الإنساني المستقل.

ومع ذلك فقد كان الموقف العام للتفكير العربي الإسلامي هو:تفضيل وترجيح وتغليب أحد طرفي الثنائية، أي تغليب النص على العقل المستقل.. وفي بعض الاستثناءات ترجيح العقل على النص في حال تعارضهما (انظر مثلا محاولة فرقة المعتزلة في القرن الثاني والثالث الهجريين)، وكذلك(بعض الفلاسفة المسلمين مثل ابن سينا، ابن رشد) ولكن الميل العام لدى المسلمين كان دائما

ترجيح النص ورفض مبادئ العقل اليوناني، وتأويل هذا العقل لصالح النص، فجمعوا بين رأي الحكيمين، وبين الشيخين، ونظروا إلى"أفلوطين" على أنه "الشيخ اليوناني" فجمعوا بين الحكمة والشريعة، بين الفلسفة الأخت الرضيعة للشريعة على حد تعبير ابن رشد.

كانت هذه الثنائية التوفيقية اللا محسومة في الواقع محسومة، خلافا لما طرحه الدكتور الأنصاري، أي أنها كانت محسومة بمعنى تفاضلية على حد تعبير "أدونيس" كما ألمحت هذه الصفحات فيما سبق.

لقد كان التفكير العربي، ولا يزال يفضل أحد طرفي هذه الثنائية، والغلبة كانت للماضي على الحاضر، والتقليد على الحداثة، والقديم على الجديد، والأصالة على المعاصرة، وهكذا رأى أدونيس: ((أن شخصية العربي، شأن ثقافته، تتمحور حول الماضي، ولعل هذا ما يكشف من جهة عن التناقض (الازدواجية).في موقفه (الفكري والسلوكي) من الحداثة الغربية، فهو من ناحية يأخذ بالمنجزات الحضارية الحديثة، لكنه يرفض المبدأ العقلي الذي أبدعها والحداثة الحقيقية هي في الإبداع لا في المنجزات بذاتها، فهو إذن يرفض الحداثة الحقيقية، أي يرفض (العقل المستقل) – الشك والتجريب وحرية التفكير والبحث، والمغامرة واكتشاف المجهول(وبتعبيرنا يرفض التفكير المستقل عن النص وثقافته.

لذلك كما يقول المذكور ظلت الثقافة العربية الإسلامية – تلامس سطح الأمور))(٦٠).

أخيرا إن اللبس الكبير في التوفيقية الزائفة، هو أن التوجه نحو الاقتباس من الحضارة الغربية، يغلب عليه هم"الحاجة"(٦١) إلى التقنية الغربية، وتقدمها، وهو ما يدعى بالجانب البراغماتي Pragmatiste أكثر مما يغلب عليه الإيمان بالقيم العقلية الإنسانية التي قامت عليها

الحضارة الغربية، وخير دليل على ذلك أن اقتباس مكتسبات الحضارة يرافقه هجوم (هجاء) عليها، وتقليل من أهميتها، واستبشار بانحطاطها المنتظر(٦٢).

لم يكن القول بالتوفيقية سوى تغطية"عقلانية مصطنعة" لبراغماتية (نفعية) أخذ ما ينفع المسلمين، عربية تقوم على تفضيل النقل، والنص على العقل، والتقليد على الحداثة، والأصالة (التراث) على المعاصرة؛ وذلك لنشدان الحياة الرغيدة مع المنتجات الحضارية القادمة، والاستفادة من حداثة العصر لتيسير سبل العيش مع الإبقاء –عقائديا وإيمانيا، وأيديولوجيا– على آثار الأولين، والعقائد الإيمانية، كتب الدكتور "نصر حامد أبوزيد" يقول في هذا الموضوع: ((ظل مفهوم المنفعة هو الباعث لعمليات النزعة التوفيقية بين التراث الإسلامي/الفكر الغربي))(٦٣).

إن التحليل العميق لهذه التفاضلية في الثنائية والقائمة على تغليب أحد طرفيها وخاصة طرف: النقل على العقل، والتقليد على الحداثة، والأصالة على المعاصرة...الخ، يقتضي منا القول أنها تعود في أصولها إلى جوهر العقيدة الإسلامية ذاتها، والقائم على الإيمان بالوحدانية الإلهية وإذا أردنا الذهاب بعيدا يمكن إرجاع الإيمان بالواحد، والوحدانية إلى عقائد الفراعنة–انظر اخناتون والتوحيد). وتفضيل العلاقة بين الإيمان بالوحدانية الإلهية، والتفاضلية في الثنائية المذكورة آنفا، أن التفكير الوحداني قد طغى على آلية التفكير العربي الإسلامي منذ ظهور العقيدة الإسلامية، بحيث أن المسلمين أحدثوا نقلة، ربما طبيعية–من الإيمان بالواحد على الصعيد الإلهي، إلى الوحدانية في التفكير على صعيد حياة الفكر في الفرد والمجتمع، (على صعيد الحياة الدنيا)، وأصبحت هذه الآلية التفكيرية تميل ميلا شديدا إلى الإيمان بالرأي الواحد، والمذهب الواحد، والحزب الواحد، وأصبح يرى في الاختلاف، والتعدد – حتى على صعيد الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية– شرا مستطيرا، وأن الاختلاف يفرق

الأمة، ويشتت شملها، ويخلق فتنة، فأصبح كل رأي يلغي ما عداها، وكل مذهب ينفي خلافه، وكل فرقة تلغي ماعداها، وترى ذاتها، أنها الفرقة الناجية، وخلافها، وما عداها، قاله الكفر والمحاربة، والخصام.

يقول أحد المعاصرين في هذا الموضوع: ((... لقد أصبح، وحتى يومنا هذا كل تيار فكري عربي يميل إلى التصرف باعتباره التيار الوحيد الذي يملك حق التحليل، والتخطيط، والتنفيذ، ويتجه لذلك إلى محاولة فرض وجهة نظره على الآخرين، إن محاولة فرض الرأي على الرأي الآخر، هي محاولات لكبت الفكر، وحرمان الآخرين من حريات لا يملك أي إنسان حق حرمان منها))(د.محمد عبد العزيز ربيع، قرن الأمل العربي. الخليج ١٣/٢/٢٠٠٠).

لقد حقق هذا النمط من التفكير الواحدي نقلة شملت الحياة السياسية والاجتماعية، ففي الحياة السياسية، أصبح الإيمان بالله الواحد الذي لاشريك له، إيمانا بالقائد الواحد، والزعيم الأوحد، والقائد الملهم، والرئيس الواحد مالك القرار العادل، والمصيري والسلطة الواحدة المتمثلة في شخص واحد لا شريك له، ولا يسأل عما يفعل، حامل كافة المسؤوليات والسلطات ويوزعها كما يشاء، إنه الأمير والملك، وهو الناطق باسم الجميع، وما يقوله هو الحقيقة المطلقة.

أما في الحياة الاجتماعية، فإن رب الأسرة الواحد هو الذي يقرر مصير الأسرة، الأبناء، والبنات وله الكلمة الأولى والأخيرة يستشير الزوجة، ولكنه يعتقد ضمنا أنه صاحب القرار...الخ.

إن التوفيقية التي تحدثت عنها هذه الصفحات، وتحدث عنها الدكتور"الأنصاري" وقبله عدد من المفكرين العرب، لم تكن سوى ظاهر الأمر، إذ أن الموضوع كان محسوما لصالح أحد الطرفين في ثنائية هذه التوفيقية، وأنها أي التوفيقية زائفة حصلت في فكر، وواقع الحياة العربية الإسلامية، ولقد كانت "توفيقية" "إجرائية" وذات غائية،

نفعية، نظرا لحاجة المسلمين إلى علوم وتقنيات الحضارة الحديثـــة، وهو ما ذهب إليه أدونيس، والدكتور نصر حامد أبو زيد...الخ(٦٤).

ثورة على النزعة التوفيقية

عندما نقول أن الإنسان، وعقله المستقل بشكل خـــاص، مقيـــاس الأشياء نكون قد عدنا إلى الوراء خمسة وعشرين قرنا، وأخذنا بمـــا قاله أصحاب التنوير في أثينا القديمة، والذين لقبوا بالسفسطائيين.

وفي مواجهة هذا الموقف جاءت الأديان السماوية لتقول بـــأن الله مقياس الأشياء، (الكون، الحياة، الإنسان...الـــخ). نحـــن إذن أمـــام موقفين :إنساني/إلهي (يتصوره الإنسان)؛ ليستبعد استقلالية العقـــل. وبتعبير آخر إن الموقفين المذكورين متناقضـــان، بـــل ومتضـــادان، والمقارنة بينهما خاطئة، كذلك صدرت عن ذلك نتيجة تقـــول بـــأن المقارنة بين النقل/والعقل أيضا خاطئة؛ لأن المقارنة تجري هنا بيـــن وضعين (وضع إلهي-وضع بشري) مختلفين بالطبيعة لا بالدرجة.

لكن رغم انفصال الموضوعين، يمكن لهما أن يتعايشا (على حـــد تعبير الدكتور "فؤاد زكريا"(٦٥). دون أن يهيمن أحدهما على الآخر،إذ أن لكل مجاله، ولكل صناعته، وآليته التفكيريـــة .والتوفيـــق بينـــهما موقف زائف.

يعتقد صاحب هذه السطور، أن المخـــرج مـــن هـــذه المحاولـــة التوفيقية الزائفة هو التمرد على هذه التوفيقية، وإحداث قطيعة بيـــن الطرفين، إنها القطيعة لصالح الحداثة، والقطيعة مع النقـــل لصـــالح العقل والتقدم.

علينا أن نثور ضد كل مظاهر التوفيقية، والمحـــاولات الزائفــة والخادعة للجميع، والتأليف بين العقل الإنساني المستقل والوحي، بين العقل والنقل.

ونثور أيضا ضد التعايش السطحي بين قطبين لا أرضية مشتركة بينهما، إنها ميوعة فكرية في استخدام الحداثة ومكتســـباتها لصـــالح النص وثقافة النص.

إننا نثور ضد هيمنة ثقافة النص، وهيمنة الأيدولوجيـــة العقليـــة، المفبركة من قبل السلطة السياسية والدينية والاجتماعية، والتي تلغي –باسم عقل تصنعه لصالحها– فعاليات العقل المستقل، إن ثورتنا ضد المسألة التي تصطنعها العقلية النفعية الذرائعية، ثورة من أجل تأصيل ثنائية متناقضة تعيش توترا حيا خصبا.

ليس أمامنا سوى الثورة ضد المشكلة المفروضة علينا من داخـــل ثقافة النص.

كان مشروع النهضة في منتصف القرن التاسع عشر في عالمنـــا العربي يقوم على محاولة التوفيق بين التراث العربـــي الإســـلامي، والحضارة الأوربية في تقدمها التكنولوجي خاصة، ودأب أصحـــاب النهضة في حواراتهم مع الغرب التأكيد على أصالة التراث العربـــي، والتأكيد من خلال هذا على الهوية الحضاريـــة العربيـــة الإســـلامية (انظر كتابات الأفغاني) ورده على الدهريين المـــاديين الأوربييـــن؟ لصالح روحانية الشرق الإسلامي، وانظر كتابـــات "محمـــد عبـــده" (الإسلام والمدنية، الإسلام والنصرانية)، وقبـــل هذيـــن المفكريـــن، محاولة الطهطاوي...الخ.

لقد فشلت هذه المحاولة منذ البداية؛ لأنها كانت حوارا بين موقفين متضادين مختلفين بالطبيعة، أحدهما ينطلق من الوحـــي، وثانيـــهما

ينطلق من العقل والعلم، لقد فشلت هذه المحاولات؛ لأنها قامت على توفيقية مصطنعة، سرعان ما سقطت.

إن معادلة النهضة قد سقطت، أعني المعادلة التوفيقية، التي انتهت إلى التلفيق فأعادتنا إلى السلفية، التي حافظت المعادلة على تجذرها بالالتفاف حولها دون مواجهتها.

لقد انتهت التوفيقية أو التلفيقية، وسقطت(٦٦).

القسم الثاني

التحرر من أنماط التفكير التقليدية

- التحرر من التفكير الأسطوري
- التحرر من ثقافة النص
- التحرر من التفكير الوجداني، ورفع البطانة الوجدانية، وإزاحتها عن بنية العقل
- التحرر من سلطة المجتمع الأبوي
- التحرر من الانتماءات القبلية،العشائرية،الطائفية، العرقية...الخ

١-التحرر من التفكير الأسطوري والخرافي

ليس حديث هذه الأوراق عن التفكير الأسطوري، والدعوة إلـــى التحرر منه هو من قبيل الإدانة لهذا التفكير، أو الدعوة إلـــى إلغائـــه ونفيه، أو إزالة رواسبه من قاع التفكير، بـــل تدعـــو الأوراق إلـــى: تحييد، وتخلية المكان إلى التفكير العلمي، والمنطقي والفلسفي، ولاشك أن هذا التحييد يتطلب جهداً معرفياً، وفكرياً ناقداً.

ولا نكران أن التفكير الأسطوري هو أحـــد مكونـــات التفكـــير الإنساني، ففي كتاب صدر في لندن (١٩٦٤م) حول محور مهم منبثق عن نظرية العالم السيكولوجي "كارل غوستاف يونج" تدور أبحاثه في إطار(الإنسان ورموزه)، حيث ورد فصل حول: الأســـاطير القديمـــة والإنسان الحديث .Ancient Myths and Modern man. Part 2

By Joseph. L. Henderson. Picadon, published by pan-book. London. 1964.

جاء في الصفحة (٩٧) ما يلي: ((إن تاريخ الإنسان القديم يعـــج بالمعاني الرمزية والأسطورية، وهي لاتزال تعيش في ثنايـــا تفكـــير الإنسان الحديث)).

إن صور الأبطال منذ قديـــم الزمـــن -والتـــي تكتســـي طابعـــا أسطوريا- معروفة، وقد ترك هذا التصور الأسطوري -حتى أيامنـــا هذه- أثرا في تفكير الإنسان، حيث تنقلب تضحيات الأبطال والجنـــود في ساحة الوغى دفاعا عن الوطن، لتصبح أسطورة في أذهان الناس، كذلك تغطي هذه التصورات الأسطورية شخصيات تاريخية معروفـــة من أنبياء، وقديسين، وأولياء...الخ. ثم إن السياق الفكـــري العـــالمي المعاصر مليء بشواهد لا تحصى، تدل على استمرار هذا النمط مـــن التفكير الأسطوري، وتأثيره، وقوتـــه فـــي المجتمعـــات الإنســـانية المعاصرة.

ولو نظرنا إلى خلفية هذا الموضوع، لوجدنا أن التأثير الأسطوري في الإبداع الفكري، والأدبي خاصة يعود إلى أيام "راسين" و"موليير" في(دون جوان) ، و"شكسبير" في(روميو وجوليت)، و"غوته" في (فاوست)، فقد تناول هؤلاء وغيرهم الأسطورة في قالب عصرهم، أي أنهم أسقطوا أفكارهم الأدبية والفلسفية على الأساطير القديمة، اليونانية والرومانية والشرقية.

وغني عن البيان، مدى تأثر أدباء وفلاسفة القرن العشرين بالأسطورة من أمثال "جيمس جويس" و"توماس مان" و"كامي" وفي الثقافة العربية المعاصرة، نلقى بعض مسرحيات "توفيق الحكيم" في "بيجامليون"...الخ.

أما في أيامنا هذه، فالكتابة عن قوة الأسطورة لازالت مستمرة، فقد نشر الأمريكي المشهور"جوزيف كامبل" كتابا عن قوة الأسطورة، والعنوان واضح التعبير والإيحاء(٦٨).

وآخر ما وقع في يد صاحب هذه السطور مقال حول أثر الأسطورة في الثقافة العالمية، يحمل عنوانا مباشرا في إيحائه، وهو: (الأسطورة كمعبر إلى الألفية الثالثة) بقلم "يوجينو بارب" وصرخة العصر(٦٩).

ومن المحاولات والدراسات والكتب الحديثة والمعاصرة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر في اللغة العربية، بعض الكتب المرجعية، وذات المادة المعرفية، حول التفكير الأسطوري:

ترجمة كتاب فرانكفورت وآخرين لكتاب (ما قبل الفلسفة) وتفصيل أثر الأسطورة والدين في الفكر الشرقي القديم (مصر-بلاد الرافدين) وصدور هذا الكتاب في طبعته الأولى في الخمسينيات من القرن الماضي، كتاب (في طريق الميثولوجيا عند العرب) "محمد

سليم الحوت"، كذلك كتب الباحث "فراس السواح" (حول مغامرة العقل الأولى)، (التفكير الأسطوري)، ثم كتب من قبيل (الأسطورة والتراث) لسيد القمني. الدكتور خليل أحمد خليل حول (مضمون الأسطورة في الفكر العربي)، و(الأسطورة في الشعر العربي) للدكتور أحمد إسماعيل النعيمي، والدكتور عبد الهادي عبد الرحمن في (التاريخ والأسطورة) وغير هؤلاء كثير.

تاريخيا تعتبر الأسطورة أحد مكونات التفكير لشعوب المنطقة (مصر ،الرافدين،سورية،الجزيرة العربية،وشمال أفريقيا)، وأصبح من غير المقبول علميا وتاريخيا أن يكون التفكير العربي في هذه المنطقة قد تكون مع ظهور الأديان، والإسلام خاصة(٧٠)، ذلك أنه قبل ظهور الأديان، كان أهل المنطقة مشبعين -إن صح التعبير- بتفكير أسطوري إذ أنهم عاشوا ضمن نمط فكري أسطوري يفهمون، وينظرون، ويتأملون، ويمارسون من خلاله، وقد أشبع الباحثون هذه النظرة دراسة وتحليلا.

هذا التفكير الأسطوري أو (الراسب القديم) مازال يعيش، ويؤثر تأثيرا فعالا في نظرتنا إلى الكون والحياة والإنسان، ولم تلغ الأديان، والأيديولوجيات الإنسانية المبتكرة هذا التفكير، بل لقد جاءت وتراكمت فوقه، وإن عملت الأديان -وخاصة الإسلام- على إلغاء التفكير الأسطوري، كما جاء في النص القرآني حول إدانة ((أساطير الأولين))، إلا أن هذا التفكير لم يلغ، ولم يزل هذا راسبا في قاع تفكيرنا حتى اليوم.

التفكير الأسطوري في مفهومه العام، تفكير لا معقول، وغير علمي، ولاتتكون عناصره من مبادئ التفكير العلمي كمبدأ السببية، والموضوعية، والواقعية. إن هذا التفكير الأسطوري تصور شعري طقسي لأحداث الكون، والحياة، ومسالك الإنسان، لقد لخص أصحاب كتاب (ما قبل الفلسفة) خاصية التفكير الأسطوري كما يلي:

((الأسطورة ضرب من الشعر يسمو على الشعر بإعلانـه عـن حقيقة ما، إنه ضرب من التفكير الخيالي، وضـرب مـن التعليـل "العقلي" يسمو على التعليل، بأنه ينبغي عليه إحداث الحقيقة التي يعلن عنها، إنه ضرب من الفعل أو السلوك المراسـمي عليـه أن يعلـن، ويوسع شكلا شعريا من أشكال الحقيقة))(٧١).

يلعب الأسلوب القصصي دورا جوهريا في الأسطورة، بالإضافـة إلى اللغة الشعرية "فتروي الأسطورة أقاصيص الخليقة، وكيفية تكون العالم، ونشأة الكون، والإنسان، ولكن بصورة شعرية فنية، تخلو مـن التعليل المنطقي، والعقلي الذي نعرفه فيمـا بعـد ظـهور المنطـق والفلسفة.

لقد كان الأقدمون يعبرون عن فكرهم العاطفي -أوالوجداني- بلغة الشعر والقصة، وإذا حاولنا تعريف الفكر الميثوبـي (الأسـطوري)، ومقارنته بتركيب الفكر الحديث (العلمي الفلسفي) لوجدنا أن الفـروق بينهما ناتجة عن الموقف والمقصد العاطفيين، وهو لا يسمى بالعقليـة ما قبل المنطقية بل بالعقلية الأسطورية والتي تتمتع بمنطقها الخاص، ولقد بنى الفكر العلمي التمييز بين: الذاتي والموضوعي، وعلى هـذا الأساس، وضع منطقه النقدي التحليلي والـتركيبي"(٧٢)، لـم يكـن الإنسان القديم، صاحب التفكـير الأسـطوري يمـيز بيـن الذاتـي والموضوعي، بين الإنسان وموضوع الدراسة، بل لقد كـان يخلـط بينهما، وكان يدمج بين الأحلام والأوهام، وبيـن الرؤيـة الواقعيـة للأمور، كما لم يقم أي تمييز محدد بين الأحياء والأموات، لقد كـان استمرار حياة الموتى وعلاقتهم بالناس أمرا مسلما به، لأن الموتـى جزء من واقع الحياة ومجرياتها اليومية العادية، وكان ما هو عـادي ومألوف مختلط بما هو خارق وغير مألوف(٧٣).

إذن هناك في عالم التفكير الأسطوري تداخل بين الخيال والواقع، وتداخـل بيـن التصويـر الشـعري، والحقيقـة الواقعيـة، بيـن الواقع/الأسطورة.

تخيل الإنسان القديم وصاحب التفكير الأسطوري أن العواطـف والانفعالات الشديدة ناتجة عن غضب الطبيعة. كذلك رأى أن فيضان الأنهار ناتج عن غضب آلهة المياه، ولكن واقع الأمر، أو من الناحية التفسيرية العلمية لا توجد علاقة سببية(علمية) بين غضب الطبيعـة - حيث أن الطبيعة لا تغضب- في العواصف والبراكين، والفيضانـات، وبين عواطف الإنسان وانفعالاته.

إننا نقول في تفكيرنا الحديث أن أشعة الشمس (المحسوسة) تخلـق فينا حرارة تؤثر فينا، وفي الأشياء، والعلاقة بين حـرارة الشـمس وسخونة الأشياء المعرضة لها موجودة، والعلاقة هنا سببية، فـهناك سبب ونتيجة Cause and Effect.

((كان الأقدمون يقصون الأساطير عوضا عن القيـام بـالتحليل والاستنتاج..نحن نفسر هطول الأمطار بعد جدب طويل، بأن ظروفـا مناخية توفرت، وأدت إلى نزول المطر، أما البابليون فكانوا ينظرون إلى مثل هذه الحقائق فيشعرون بأنها وساطة من الطـير العملاقـي (إمدو ،غود) إذ جاء لإنقاذهم، فكسا السماء بما في جناحيه من سـحب وزوابع سوداء، والتهم ثور السماء الـذي أحـرق الـزرع بأنفاسـه الملتهبة))(٧٤).

استمر هذا النمط من التفكير الأسطوري طوال قرون من الزمن، ولازالت آثاره في فكرنا الحديث(٧٥)، ولازال الراسـب الأسـطوري يعيش في أعماق تفكيرنا،يظهر على السطح الفكري الشـعوري فـي مناسبات، وأحداث معينة، والمشكلة ليست في وجود هذا الراسب فـي فكرنا بقدر ما هي عدم إفساح التفكير الأسطوري هذا، لتفكير علمـي-

فلسفي-وواقعي من الأمثلة المعاصرة التي تعبر عن سيطرة هــاجس الأسطورة في تفكيرنا، مثال فكرة الشيطان:إذا افترضنـــا أن فكــرة الشيطان في جوهرها أسطورة من الأساطير التي تخيلها الإنسان قبل ظهور الأديان، و(هو رمز الشر في الإنسان) وتأكيدها علـــى هــذه الأسطورة، فإننا نجد الشعوب المتدينة-خاصة- لا تزال تجد في أثــر الشيطان في حياتنا اليومية عاملا مؤثرا (فعليا) فـــي هــذه الحيــاة، وتأثيره هو من قبيل المسلمات.

كثير من الباحثين في أيامنا هذه يتحدثــون عــن علاقــة فكــرة الشيطان واختراعها، والتراث:

يرى الأستاذ "سيد القمني" أن ((الشيطان تجاوز إطاره الدينـــي، وتغلغل في ذات الإنسان ليتحكم في حياته، ومن ثم أصبح لكــل مــا لانرضى عنها، ستارا يخفي الأسباب الحقيقية، ومشــجبا للأخطــاء، على مستوى الفرد، والجماعة، والدولة، وتفسيرا لكل مجــهول ممــا أدى بالعقل الشرقي، إلى الغياب شبه الكامل عن واقعـــه المــتردي، بحيث تحول التغيير الاجتماعي المطلوب نحو الجانب الأخلاقي بشــن الحرب على الشيطان، وأعوانه في المقام الأول، وليس تغييرا للواقــع المأساوي الذي نعيشه، وهذا يدل على مدى تمكن فكـــرة الشــيطان (الأسطورية) في العقل الشرقي))(٧٧).

إن الاعتقاد بأسطورة الشيطان، وأثرها في حياة الإنسان، وكونــها ستارا يخفي الأسباب، وتفسيرا لكل مجهول، تعبيرا عن عجز الإنسان عن البحث عن الأسباب الواقعية، و(ليس الخرافيــة) أو كــون هــذا الاعتقاد تلبية لحاجة الخيال الإنساني، وجموحه نحو الخــروج عــن واقع الحياة اليومية، كل ذلك يبعدنا عن التفكير العلمـــي، والفلســفي الناقد، إن الشيطان لايسعف الباحث العلمي ولا المفكر ولا الفيلسوف- المنطقي في نظرتهما إلى الأمور.

وفي السياق اللغوي، وأثر الأسطورة في التعبير، فقد كتب الدكتور نصر حامد أبوزيد في كتابه (النص، السلطة، الحقيقة،ص٧٦) ما يلي: ((إن العلاقة بين اللفظ، والمعنى الذي يدل عليه، علاقة تطابق، ما تزال بقايا النهج الأسطوري في تصور اللغة موجودة حتى الآن في كثير من المظاهر التي يمكن تلمسها في حياتنا الاجتماعية، ولن نتطرق إلى مسألة (الحجاب) الواقي للصغار، ومسألة التداوي ببعض الكلمات، والاستذكارات والأدعية، وهذه الممارسات تستمد مرجعيتها من مفهوم القوة السحرية للغة الناتج عن قدرة اللفظ (اللغة) منطوقا، أومكتوبا، لا على استحضار المعنى في الذهن فقط، بل القدرة على استحضار الشيء)).

كذلك يمكن استحضار الشطحات الصوفية وأثرها اللفظي، والروحي في السامعين.

أما من الناحية السياسية فتجد السلطة السياسية مصلحتها في تشجيع الاعتقاد بالأسطورة، كأسطورة الشيطان، وأثرها في نشوء الفساد الاجتماعي، والأخلاقي، والانهيارات الاجتماعية، والسياسية الكبرى.

الخلاصة: إن القول بالأثر الفعلي للشيطان أمر غير معقول، وإن ميلنا في عزو شرورنا، وأخطائنا في التفكير والسلوك إلى (كائن أسطوري) لا هوية له، ولا أثر واقعي، هو أمر سهل يوفر علينا البحث عن الأسباب والنتائج، وهو في النتيجة يبعدنا عن العمل العلمي، والتقدم العلمي.

وإذا كان العزو الشيطاني مريحا لفكرنا، فهل نحن بلغنا درجة من التعب العقلي، والتخمة العقلية، كي نضجر ونمل ونفر، ونمل التفكير الجاد سعيا للراحة والسكون؟

أخيرا، لمزيد من الاطلاع على الجانب الخرافـــي فـــي العقليـــة العربية، حبذا لو يتم الوقوف على كتـــاب (دراســـات فـــي العقليـــة العربية-خرافة- د.إبراهيـــم بـــدران، د.ســـلوى خمـــاش، ط٣. دار الحقيقة،بيروت.١٩٨٨).

٢-التحرر من ثقافة النص

ما معنى ثقافة النص؟

تحدثت هذه الأوراق عن المكون الأول لبنيـــة العقــل العربـــي، أي:الأسطورة، حيث يـــأتي المـــوروث القديـــم، وخاصـــة التفكـــير الأسطوري في المنطقة العربية، ليشكل ما يمكن تسميته بـ"لاشـــعور التفكير العربي-الإسلامي". فالموروث الأسطوري إذن كان ومـــازال تاريخيا، أسبق من الحديث عن بنية العقل العربي التي تحدث عنـــها الدكتور الجابري، وحددها تاريخيا منذ عصر التدوين، ولازال تـــأثير الأسطورة في تفكيرنا يلعب دوره، أما عن ثقافة النص فقد بدأت فـــي واقع الأمر منذ ظهور النص القرآني، ونتج عن النص ثقافة تتكـــون عناصر منظومتها من ثلاثة: البيان(الشعر، والخطابة وفصاحة العبارة وسحر البيان..)، والبرهان(العقل الأداتي الذي استخدم التبرير والدفاع عن النص الديني، وأسسه الاعتقادية)، والعرفان، أو المعرفة اللدنيـــة والصوفية التي كبحت جماح العقل، وألغته لصالح الوجود الروحي.

لقد أشار كثير من الباحثين إلى ثقافة النـــص منـــهم "أدونيـــس" في(الثابت والمتحول) وآخرهم د.نصر أبوزيد، يقـــول الأخـــير مـــا يلي(٧٨): ((تحددت قوانين إنتاج المعرفة(إنتاج العقـــل) فـــي الثقافـــة العربية على أساس سلطة النصوص، وأصبحت مهمة العقل في توليد النصوص من نصوص سابقة، واقتصرت مهمة العقل على التكـــرار، والشرح والترديد، وقد أدى هذا كله إلـــى ركـــود الثقافـــة(وحـــدود إبداعها)(٧٩)، التي عززت بدورها ركود الواقع العربي المنتج لـــهذه الثقافة))(٧٩)مكرر.

لعل أخطر ما نتج عن النص الديني هو التصور الوحداني للعالم، وحسنا لو كان الأمر هو في الاعتقاد الوحداني فيما يتعلق بيقينيات الكون،أو القضايا الميتافيزيقية،وحصر هذا التصور الوحداني الإلهي، ولكن المشكلة هو امتداد هذا التصور الإلهي إلى الوجود والحياة الإنسانية والمجتمع.

وبعبارة أخرى يرى المسلمون أن الله واحد، والأمة واحدة وهذا أمر لا ينازع فيه المسلمون أحد. ولكن امتداد هذه الرؤية إلى الحياة الفكرية بحيث أصبح الاعتقاد بالوحدانية هذه، يمتد في ساحة فكرنا ليدعونا إلى:الرؤية الواحدة في كل شيء، ولقد عرف تاريخنا الفكري إلغاء عجيبا لكل من يخالف رؤيتنا الواحدة للأمور، فكل فرقة منذ نشوء الفرق الإسلامية في العصور العربية الإسلامية، تلغي الفرقة الأخرى، وكل جناح يقص الجناح الآخر، وكل فرقة ترى نفسها الفرقة الناجية، وكل حزب يرى أنه الحزب الواحد...الخ.

وإنه لأمر معروف في تاريخ الأديان، والأيديولوجيات، أن كل دين ينفي الآخر، وكل أيديولوجية مغلقة على نصوصها، تلغي الأيديولوجية الأخرى.

في هذا الجو من النفي والإلغاء يصبح التعايش بين المختلفين، والمتناقضين والمتضادين أمرا مستحيلا، وعلة ذلك مد الإنسان تصوره الإلهي الواحد إلى الحياة والواقع.

لاشك أن هناك أسبابا اقتصادية وسياسية واجتماعية، وصراعات بين القوى تخلق أجواء الإلغاء وتمهد الأرضية للهجوم على العقل، لكن العقلانية تقتضي معالجة أسباب الإلغاء(٨٠)، وتتطلب تحليل بنية هذا الامتداد من الإلهي إلى الإنساني.

إن لغة إلغاء الآخر تقوم في صميمها علـــى التعـــامل المطلـــق والكلي، إذ أنها ترفض كل ما عداها وتنفيه، وتخشى التفاعل والحوار معه، وتحتمي وراء نمط معين من التفكير النصي (الديني)، وتفتقـــر إلى الأدوات العقلية والمنطقية، وقواعد التفكير العلمي المؤدية إلـــى إقناع الآخر.. وسرعان ما ترتمي هي وخصمها في دوائر جهنميـــة من النفي المتبادل، والرفض المتبادل، والاستئصال المتبادل، فتـــأكل النيران بعضها، وتصبح الحياة ذات طابع انتحاري فردي وجمـــاعي، لذلك فإن التفكير الديني المتطرف والطائفيـــات المتطرفـــة، يدخـــل المجتمعات في أتون حروب عقيمة، ودمار يدل على عبث هذا النمـط من التفكير القصي.

٣-إزاحة البطانة الوجدانية

تداخل العقل والقلب

إن رواسب التفكير الأسطوري القائم على اللغة الشعرية في القص الأسطوري في المنطقة العربية قد استمرت في تأثيرها على عقلية أهل هذه المنطقة، ومن ناحية ثانية يحمل هذا النمط من التفكير الأسطوري أثرا سحريا للغة وأخيلتها وصورتها، وبتعبير آخر إن لغة الشعر والبيان من بلاغة، وفصاحة ونصاعة وجمال اللغة، ظلت تعمل عملها تأثيرا في نمط وأسلوب التفكير عند العرب في الجزيرة العربية، ولدى أهل بلاد الفتح الإسلامي فيما بعد.

لقد ساد الشعر حياة وفكر العصر الجاهلي(الشعر ديوان العرب) كما جاء في دلائل الإعجاز ط١٩٨٩،ص٨-٩. وبغض النظر عن الاختلافات في مدى صحة المعلقات الشعرية الجاهلية، ومدى كونها صورة معبرة عن العصر الجاهلي فهذه المعلقات وغيرها من أشعار كانت تغطي سطح الحياة الجاهلية، فكرا وعقلا وسلوكا.

لقد كانت لغة الشعر، أو لغة الوجدان والقلب. هي لغة الحياة الجاهلية،وما كان للعرب في ذلك العصر سوى اللغة الشعرية وتأثيرها السحري العجيب على نفوس وعقول أهل العصر((إن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا يمثل الفترة السابقة لنزول القرآن الكريم، وهو بالتالي يمثل الخلفية اللغوية لتلك الفترة الزمنية..إن المعلقات هي أشهر ما روي من الشعر الجاهلي كما أن ديوان الأعشى هو أكبر دواوين الجاهلية، ويكاد يحتوي ربع الشعر الجاهلي على وجه التقريب، ويضم هذا الديوان(٢٣٢١)بيتا..))(٨١).

إن لفظ العقل في الجاهلية متداخل بمعاني كثيرة منـــها: الديـــة، والتقييد، والربط، والقوة العاقلـــة، والأثـــر الكبـــير الـــذي يحملـــه القلب(العشق) على العقل(٨٢)، يقول امرؤ القيس:

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

في كتاب صاحب هذه السطور فصول مطولـــة حـــول مـــا دعـــاه بـــ"التفكير الشعري" وذلـــك فـــي كتـــاب (دراســـات فـــي التفكـــير العربي)(٨٣).

وخلاصة ما ذهبنا إليه أن "القاع الشعري" أو ما دعاه الدكتـــور الجابري بـــ((البطانة الوجدانية)) له من التأثير العظيم على أســـلوب التفكير العربي على مدى العصور، ولقد نزل النص القرآني ليعـــزز هذا النمط من "التفكير الشعري" بتأكيده على تداخل العقـــل والقلـــب، ولقد سلك القرآن الكريم مسلك التداخل بين المعنيين.

لقد ورد هذا التداخل بين العقل والقلب والفؤاد واللـــب والجنـــان والروع، في القرآن الكريم في عدد كبير من الآيات نكتفي بذكر مثال على سبيل الاستشهاد: ((قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لاتعمى الأبصار، ولكـــن تعمـــى القلـــوب التـــي فـــي الصـــدور)) (الحج٤٦)(٨٤).

أما على صعيد اللغـــة المعجميـــة، فقـــد جـــاء فـــي القـــاموس المحيط:القلب، الفؤاد، أو أخص منه، العقل، ومحض كل شيء، وقـــد يعبر بالقلب عن العقل مثال قوله تعالى: ((إن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب)) "سورة ن آية٣٧" أي عقل، والقلب ويتقلـــب، مثـــال قـــول النبي(ص) ((سبحان مقلب القلوب)).

((القلب أو الجانب الوجداني من العقل أو البطانة الوجدانية للعقل يمثل ثنائيات الحب والكراهية، والشجاعة والخوف، الألم والفرح، اللين والقسوة، ويدخل أو يختلط مع الجانب العقلاني الذي يمثل الهوى والرشاد، والأسرار والإعلان، والاستقامة والتفهم، والتدبر وطاعة الله..الخ. كل ذلك يشعرنا بذلك التداخل في المعاني بين العقل والقلب واللب والفؤاد والروح والجنان. وكأنها تعبر عن شيء واحد من الناحية اللغوية)) (٨٥).

الواقع لايتم هذا التداخل فقط من الناحية اللغوية، بل يعبر عن "أسلوب" أو طريقة في التفكير، وخاصة بعد نزول النص القرآني وتأكيده على الجانب القلبي في الاعتقاد وتأسيس ثقافة النص انطلاقا من هذا الاعتقاد.

الخلاصة: لقد تم خلط كبير بين جانبي العقل والقلب، وتم تغليب القلب، أو الجانب الوجداني على حياة العقل المستقلة والتحرر المطلوب في هذا المجال هو: الفصل بين العقل والقلب، وتغليب الجانب العقلي على الجانب الوجداني.

٤-التحرر من سلطة المجتمع الأبوي

من سلطة الأبوين إلى الحوار

إذا كان المعقول هو ما نعقله بالقلب، وكان القلب أداة المعقولية والمعنى، وأداة إدراك جوهر الأشياء، وأن الحدس بلغة الفلاسفة،هو المعرفة المباشرة التي لا تعير اهتماما للبرهان والسببية والمعقولية المنطقية، فنكون قد تجاوزنا الخلط أو التداخل بين العقل والقلب، أو تداخل المعقول وألا معقول يصبح الأمر كله في الهيمنة شبه الكاملة لسلطة اللامعقول(القلب-والوجدان).

تمتد هيمنة السلطة اللاعقلية، وتغلب الجانب الوجداني لتشمل القيم والمعايير المطلقة، واستحضار "المطلقات" في تفكيرنا، ولم يعد الله كما في الدين هو المطلق وحده، بل يمتد هذا التفكير الإطلاقي ليشمل رؤيتنا الاجتماعية، فتأخذ صورة الأب في المجتمعات التقليدية صورة (المطلق) و(رب الأسرة) هو الصورة المطلقة المنبثقة بدورها عن الإيمان بالله المطلق، ويصبح المجتمع إلهيا على الصعيد الاعتقاد الديني (وإلهيا-ربانيا) على الصعيد الحياة الاجتماعية (رب الأسرة) ويصبح المجتمع أبويا_(بطريركيا). الأب بطبيعة كونه أبا، مصدر رزق حياة الأسرة تقليديا، يرى فيه المجتمع مسؤولا عن أبنائه وبناته يرشدهم، وينصحهم، ويشدد في الإرشاد والنصيحة، وأحيانا يخاصمهم، ويعاقبهم عن كل تقصير، وعصيان يبدوان منهم.

إن مجتمعاتنا العربية المحافظة على روح وشكل المجتمع الأبوي، لا تزال تعيش في إطار رب الأسرة ورب البيت، وضمن إطار ربة المنزل، ولكن الميل الغالب أن أبناء المجتمعات العربية-الإسلامية لازالوا يعيشون في "جلباب الأب".

يتحدث الدكتور هشام شرابي عن انبثاق مفهوم النظام البطريركي، وعن شمول السلطة الأبوية في المجتمعات العربية من خلال تجربته الخاصة في المجتمع، فيقول:

((برزت أمامي بوضوح سلطة أبي. وكل من حل مكانه خلال تجاربي في الحياة من: معلم المدرسة الابتدائية،إلى الشيخ في الجامع المجاور لبيتنا، إلى الأستاذ في الجامعة الأمريكية. إلى ممثلي الأنظمة المهيمنة في المجتمع.

هنا، في محيط العائلة الأبوية ينشأ النظام البطريركي، والتوجه النفسي الذي يحدثه في نفوس الأفراد بما فيها علاقة التناقض والخصام بين الأب والابن وخضوع هذا الأخير لإرادة أبيه، وتنشأ قصة الفردوس المفقود والانتقال من حرية الطبيعة إلى كبت السلطة وقسوتها القمعية))(٨٦).

يتعدى أمر السلطة الأبوية في المجتمع ليلامس بقوة شديدة بنية السلطة السياسية في المجتمعات العربية الإسلامية، ويحلو لصاحب السلطة السياسية في العالم العربي أن يلعب دور الأب، والرئيس، الأب القائد، والمرشد، والمعلم لشعبه، ومجتمعه، ويلعب كذلك دور الأب الحنون، والعطوف على أولاد وصغار أبناء شعبه.. ويحملهم بين يديه يقبلهم، ويشكرهم لتقديمهم باقات الزهور عند هبوط أو إقلاع الطائرة، وعند عودة القائد إلى أرض الوطن عودة حميدة سواء في رحلاته الخاصة أو الرسمية.

لقد حصل انتقال غير معقول من مفهوم سلطة الأب في المجتمع إلى مفهوم مشارك له، إلى السلطة السياسية.

إن جعل صاحب السلطة السياسية من نفسه أبا، يعود إلى ما يشير إليه الدكتور هشام شرابي في أعماله السوسيولوجية العربية، وتحليله

لبنية المجتمع البطريركي، أو الأبـــوي وتحليلـــه لمفـــهوم الأبويـــة Patrimony ، وقد وضع المذكور كتابا بهذا الخصوص؛ ليميز بيـــن مفهومين: الأبوية، والبطريركية، فالأول محصور في بنية العائلـــة، والبنى المتفرعة عن العائلة كالعشيرة، والقبيلة، بينما يضـــم مفـــهوم البطريركية البنية الاجتماعية بكاملها -بـــما فيـــها البنيـــة العائليـــة، وتفرعاتها- والاختلاف هنا كمي((أي في الاختلاف النوعـــي علـــى المستويات كافة السياسية، والاجتماعية والنفسية والثقافية))(٨٧).

يظهر الانتقال غير المعقول في السلطة الأبوية من المجتمع إلـــى السلطة السياسية في نظرة هذه الأخيرة إلى النظر إلـــى المواطنيـــن، أبناء المجتمع، والوطن على أنهم غـــير راشـــدين، ولا يســـتطيعون التفكير في مصالحهم كأفراد.

وتعتبر هذه السلطة نفسها وصية على مصالح أبناء الوطـــن، تفكـــر عنهم، ولهم، وعليهم إطاعة أولي الأمر.

هذا هو النظام الذي يحكم حياة الفرد فـــي المجتمعـــات الســـباقة للحداثة كافة (المجتمعات النامية) حيث يخضع فيه الفرد إلـــى نظـــام واحد (نظام الأب) بأشكال مختلفة يقوم علـــى الســـلطة المباشـــرة، والوحدانية في الحكم والإدارة، التي نجد نموذجها فـــي المجتمعـــات الأبوية..

يقوم الدكتور شرابي بصياغة ترسيمة ذات دلالة هامة في الكشف عن التمايز بين بنيتين: بنية المجتمع الحديث، وبنية المجتمع التقليدي.

نعود في هذا المقال إلى الوراء قليلا أي إلى "ثقافة النـــص" فـــي منطقتنا صاحبة الأديان: إن الثقافة اليهودية تصب اهتمامـــها الكبـــير على مجتمع الذكور، وتصب المسيحية اهتمامها الكبير على مفـــهوم

سلطة الأب Pere ، الابن، والروح القدس، فالآب أو الأب هـــو:الله، والبابا هو الإله Bon-Dieu يمثل أبيه الأعلى على الأرض.

أما في ثقافتنا العربية الإسلامية، فإن الأب هو"ولي الأمر" والوالي هو المتولي للسلطة، وهو ولي الأمر، والأمراء والسلاطين والملـــوك والرؤساء هم: أولو الأمر يجب إطاعتهم، كما يطيع الابن أباه، وفـــي عدم إطاعة ولي الأمر فتنة وعصيان.

إمكان التحرر من السلطتين الأبوية الاجتماعية والأبوية السياسية:

خلص الدكتور شرابي في مقاله عن المجتمع الأبوي: ((إن تـــوق الفرد للانعتاق والتحرر، إنما ينبع من التاريخ الداخلي المفروض فـــي أعماق التجربة، واللاشعور والذي يتحول مع الزمـــــن إلـــى وعـــي هادف،وممارسات محددة تقررها ظروفه المادية المحسوسة، وأحـــوال معيشته، ومستوى إدراكه.

وإن نزعة التغيير الاجتماعي والسياسي هي في صميمـــــها إرادة لتغيير النظام الأبوي، أي إلى الحد من سلطة الأب اجتماعياً وسياسياً، وبالإطاحة بها كلياً، واستبدالها بنظام آخر، أي نظـــــام يقـــوم علـــى الأخوة، والمساواة، والعلاقات الأفقية.

من هنا، كانت أنماط الحياة السياسية، وأشكال السلطة في حيـــــاة الشعوب ينبثق من أنماط الثقافة الاجتماعية، وأنواع الأنظمة العائليـــة المهيمنة فيها.

وهكذا يمكن القول، إنه على صعيد الوعي الفردي، إن التحليــــل النظري الذي يطرحه المثقفون العرب لواقعـــهم، وتاريخـــهم، ومـــا يقدمونه من حلول لمشاكل مجتمعهم، إنما يعكس تجربتهم الحياتيـــة، والفكرية المعاشة في ظـــل النظـــام الأبـــوي، بـــدءاً مـــن العائلـــة،

والمؤسسات التثقيفية، وانتهاء بالنظام الاجتماعي والسياسي المهيمن في أشكاله المختلفة))(٨٨).

لقد قال فلاسفة التنوير في أوربا القرن التاسع عشر، بأنه إذا استعنّا بالعقل في العلاقات البشرية، فإنه سيتوضح لنا أن الملوك ليسوا آباء لشعوبهم(٨٩).

بديهي أننا لسنا من أنصار الانتقال من النقيض إلى النقيض، وتحصيل الـ١٨٠درجة، وبعبارة أخرى لسنا من أنصار الانقلاب الشامل من مفهوم المجتمع الأبوي، إلى مفهوم المجتمع الأمومي وسلطة الأم، فالأم كالأب، ولكل دوره في البناء السياسي والاجتماعي، ورغم ميل المجتمعات الحداثوية نحو إعطاء المرأة دورا أكبر من دورها كممثلة لنصف المجتمع، فنحن لا نميل إلى هذا الجانب، إن المساواة في الحقوق، والواجبات والمسؤولية المشتركة. دون مناطحة الرجل، والصدام معه، ومنافسته، وعدم إحلال الأنوثة، محل الذكورة أمر نميل إليه، فالأخوة والمساواة والمسؤولية، قواعد يمكن أن ينطلق منها الجنسان لبناء وإعمار الحياة.

٥-التحرر من الولاء والانتماء: العصبي، والدموي، والجهوي

لقد ورثنا الشعور الجامح بالانتماء القبلي من العصر الجاهلي، وقد حملته إلينا قبائل الجزيرة العربية بعد الفتوح الإسلامية، ووردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع عبارات: القبيلة، والعشيرة((وأنذر عشيرتك الأقربين)) ((وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا))...الخ.

كانت القبيلة موطن التقدير والإجلال لدى الأبناء والأحفاد، وأبناء العم وبنات العم، وكان التعلق الدموي بالقبيلة جعل أبناء القبيلة، يصابون بعمى الأبصار، والقلوب، وبغياب تام للفاعلية العقلية، عندما يندب أحدهم أخاه في النائبات دون أن يسألهم برهاناً.

لقد ربط الدكتور محمد عابد الجابري الشعور الجامح بالانتماء إلى القبيلة بالغنائم أو المكاسب المعاشية (العامل الاقتصادي) وذلك في كتابه (العقل السياسي العربي) بينما غاب تحليل هذا الانتماء لدى البروفسور محمد أركون في أعماله الفكرية المتعلقة بالفكر الإسلامي.

لاشك أن السلوك العائلي، أو القبلي، أو العشائري أو الطائفي أو الجهوي، يعكس تفكيرا لدى الفرد أو الجماعة. وإذا كان هذا السلوك مبررا، ضمن السياق الاجتماعي والسياسي في المجتمعات القبلية، فهل نقبله في إطار وسياق حياتنا الحديثة والمعاصرة؟.

نستعير ما وضعه الدكتور الجابري والذي استعاره بدوره عن المفكر الفرنسي"دوبريه" حول القاع الفكري العربي، أو المحرك الداخلي والكامن للتفكير العربي ((وقوامه العلاقات القبلية، والعشائرية والعلاقات الطائفية والجهوية الضيقة التي تستمد قوتها المادية

الضاغطة القسرية مما تقيمه من ترابطات، وعلاقات بين الناس وتوفر ما يقوم بينهم بفعل تلك العلاقات نفسها من: نصرة، وتنصلر، أو فرقة وتنافر، هذه البنية من العلاقات -المؤسسة أصلا على بنية باطنة، أو البطانة الوجدانية في التفكير العربي- وهو أيضا بطانة العقل الكوني. أي أنها ليست خاصية التفكير العربي من الناحية القومية.

إلا أن كثيرا من المجتمعات، وخاصة المتقدمة قد تجاوزت هذه البنى. هذه البنية من العلاقات (اللاشعورية) تبقى قائمة، فاعلة، رغم ما قد تتعرض له البنية الفوقية في المجتمع من تغييرات نتيجة التطور الذي يحدث في البنية التحتية المقابلة لها، فهذه ليست جزءا من تلك))(٩٠).

هناك تفاعل بين ما دعوناه بموجودات القاع الفكري، مع البنية الفوقية، وتكاد تشكلها، أي أن هذه الموجودات في القاع الفكري من قبل القبيلة، والعصبية القبلية، والتعصب الطائفي، كامنة فاعلة تظهر على السطح في الموقف والظروف الطارئة، وتتجلى في السلوك اليومي.

إنها على صعيد حياة الجماعات بمثابة "لاشعور جمعي" يتحرك في قاع التفكير، بينما العلاقات الاقتصادية، علاقات الإنتاج، والاستهلاك لا تهيمن على المجتمع إلا بصورة جزئية، وهذه الانتماءات توجه مسالكنا من الخلف، وتوجه تفكيرنا من القاع، رغم كوننا نتظاهر في أحيان كثيرة بالتجرد من هذه الانتماءات بدعوى انتمائنا الحضاري، وحداثتنا في الفكر والسلوك.

الواقع تعتبر هذه الانتماءات مفاتيح أساسية لفهم العقل العربي، ونعرج في هذه النقطة على ما كتبه الجابري حول مفهوم الانتماء القبلي ودور القبيلة:

((القبيلة نعني به الدور الذي يجب أن يعزى لمـــا يعـبر عنـه الإنثروبولوجيون الغربيون بـــ"القرابـة" -La Parentee- عنـد دراساتهم للمجتمعات البدائية، والمجتمعات السابقة على الرأسـمالية، وهي بكيفية إجمالية ما سبق أن عبر عنه "ابن خلدون" بالعصبية، عند دراسته لطبائع العمران في التجربة العربية الإسلامية إلـى عـهده، ونعبر عنه اليوم بالعشائرية حينما نتحدث في طريقة في الحكـم، أو السلوك الاجتماعي أو السياسي وهو نمط تفكير يعتمـد علـى ذوي القربى منهم الأباعد، بل بالاعتماد على ذوي الخبرة والمقدرة، فمـن يتمتعون بثقة الناس واحترامهم، أو يكون لهم نوع ما مـن التمثيـل الديمقراطي الحر، ولا نقصد قرابة الدم حقيقة كانت أم وهمية، بـل نقصد كذلك كل ما في معناها من القرابات ذات الشحنة العصبية مثل الانتماء إلى المدينة، أو طائفة، أو حزب حين يكون هذا الانتماء هـو وحده الذي يتعين على الأنا والآخر في ميدان الحكم والسياسة))(٩١).

أما عن الدور السياسي للقبيلة، فـهو مرتبـط بـالدور الفـردي والاجتماعي، وبعبارة أخرى، إذا كان المجتمـع مبنيـا فـي فكـره وسلوكه، على بنية القبيلة، أو عشائرية، أو طائفية، فإن بنية الدولـة ستكون مبنية على قواعد الانتماء حيث تلعـب فـي تشـكيل البنيـة السياسية، وبنية الدولة على أسس قبلية موزعـة بحسـب كبريـات القبائل، ومستوى حياتها المعاشية، دورهـا الفـاعل فـي العلاقـات الاجتماعية ومدى القرابة، والتأثير في الحياة العامة.

يذكر الدكتور نصر حامد أبو زيد أنه ((في أول خلاف نشأ فـي الدولة الإسلامية عشية انتقال الرسول-ص- إلى الرفيـق الأعلـى، رفضت قريش رفضا باتا ونهائيا مبدأ تداول السلطة والمشاركة فيها، وذلك حين طرح الأنصار -أهل المدينة- : منا أمير، ومنكم أمير، أو منكم الأمراء ومنا الوزراء، وكان معنى هذا الرفض من جانب قريش تحويل المشروع الإسلامي المطروح في القرآن الكريم-وهو مشروع عربي إسلامي- إلى مشروع قبلي، وربط النبوة بآفاق قبلية، ومن هنا

انحصر الصراع بين بني هاشم وبني أمية، وكان على القوى الاجتماعية أن تخوض الصراع، إما في جانب هذا الطرف أو في جانب ذاك، واتخذ الصراع على المستوى الثقافي والفكري، بل والأدبي أيضا آلية الاستناد إلى الماضي لتأكيد الأحقية في حكم الحاضر والسيطرة عليه، وظلت هذه الآلية هامة في كل أشكال الصراع العربي الإسلامي. وهي آلية تؤكد ذلك الالتباس بين مفهوم الدولة ومفهوم القبيلة. ذلك أن القبيلة تعتمد في تعزيز علاقات الترابط بين أفرادها على رابطة الدم والعرق الممتد في الماضي))(٩٢).

أما الانتماء الطائفي الديني فهو يقوم على احتكار وتأويل معين، يلبي مصالح الطائفة للنص الديني، نافيا هذا التأويل لمختلف التأويلات والقراءات الأخرى لهذا النص، وهناك قرابة شعورية بين التعصب القبلي، والتعصب الطائفي، أي أن هذا التعصب هو انتماء إلى "مطلق" تضعه القبيلة في: الدم، والعرق، والانتماء إلى "مطلق" تضعه الطائفة في تأويلها للنص والتقيد الشديد به.

إن "المطلق" لدى القبيلة، هو بنية القبيلة الممتدة في الماضي والحاضر، ومطلق الطائفة هو النص المؤول حسبما تراه هذه الطائفة أو تلك، فالتعصب هو الشعور ذاته، ينعكس في تعصب قبلي أو عشائري، أو طائفي...الخ.

إن هذا التعصب، وفي أي شكل من أشكاله، هو شعور مقيد بأسر حرية الفرد والجماعة، يكبل التفكير العقلاني، والواقعي والموضوعي، فلا مكان للتفكير العلمي، وشروطه في هذا النمط التفكير -العصبي.

فنحن لسنا أحرارا في الفكر والسلوك، باعتبار أننا مقيدون سلفا ببنية فكرية وشعورية تقوم على انتماءات لم نخترها بإرادتنا الواعية، وهي مفروضة علينا من خارج ذواتنا، إن هذه الانتماءات تفعل فعلها في المجتمعات العربية المعاصرة، وهي تتجاوز الدساتير المكتوبة،

وتعلو على القانون، وتتحكم في مسيرة الدولة، وتتحكم في أمزجتنـــــا الفردية والاجتماعية، ولا يمكننا ضمن هذه الأنماط من الانتمــــاءات المحدودة، الدخول أو تشكيل ما يسمى بـــ"المجتمع المدني".

إن الولاء الحقيقي هو ولاء الفرد لعقله الحر، وضميره الإنساني، وإذا كانت الحرية ونبالة الضمير الإنساني تشكلان بنية المجتمع، فـــالولاء أو الانتماء لهذا المجتمع هو المطلوب.



القسم الثالث

العقل العربي: من الظلمات إلى النور

- العقل عندنا أداة تحرير، وتقدم، واللاعقل أداة قمع، وقسر وتقييد وإرهاب ونفي وإلغاء وقتل.

- تصور أصحاب العقل بأن البشر جميعا يمكنهم أن يبلغوا على هذه الأرض قدرا من الكمال، وأن يصنعوا الأشياء كاملة كمال المطلق.

- قال أصحاب العقل: على الإنسان أن يحقق فردوسه الفردي، والاجتماعي على الأرض، وأن ينعم بالنعيم المقيم وسط عالم الشهادة.

- كان لدى فلاسفة العقل في القرون الخالية، قناعة كاملة بأن العقل المستقل قادر، وبإمكاناته الذاتية على تحقيق التقدم للبشرية.

- "إن اتخاذ موقف عقلي من الحياة، ومشكلاتها يقدم لنا عونا هائلا في سعينا إلى إيجاد حلول مناسبة نتغلب بها على صعوباتنا مع اعترافنا بأن الحلول النهائية الكاملة كمالا مطلقا تنتمي أحيانا إلى عالم آخر، وهذا الموقف الأخير هو من شأن الأفراد لا المجتمعات" برتراندراسل(٩٣).

إن الأديان السماوية والوضعية والأيديولوجيات الإنسانية(٩٤) لا تقوم على المنطق والعقل بل على الاعتقاد، والاعتقاد موضعه القلب، ودافعه الانفعال، والشعور يؤمن الناس بها جميعا، وتنظر هذه الأديان والأيديولوجيات إلى الخارجين، والمنشقين والملحدين (المنحرفين) والكافرين على أنهم يقعون في دائرة الرفض والازدراء، وفى أسوأ الحالات، يحكم عليهم بالنفي، والإلغاء، والاستئصال، وفي أحسن الحالات ينظر إليهم بتحفظ شديد.

تتضمن الأديان والعقائد والأيديولوجيات بعدا متطرفا ومتشددا، وأصوليا في متونها، وأصولها، فالدين والعقيدة عندما تعملان بقوة، على إثبات ذاتها فهي تنتهي لا محالة إلى نفي غير المؤمن بها، أو معتنقها، وترى أن من يخرج عن الطاعة ويفارق الجماعة (جماعة الإيمان) فلا بد أن يموت ميتة جاهلية.

فاليهودية باعتقادها بأنها الديانة الوحيدة، وأن أصحابها هم شعب الله، ينتج عن ذلك استبعاد الآخر، والانغلاق المطلق ضمن دائرة الاعتقاد اليهودي، ولقد حارب الباباوات في الكنيسة الكفار لتحرير بيت المقدس، وبالنسبة إلى الإسلام إن الدين عند الله الإسلام، وينسحب هذا الأمر من: نفي الآخر بقية الأديان والعقائد والأيديولوجيات الدنيوية.

من زاوية فلسفية إن إثبات الدين أو الأيديولوجية لذاته يعني ضمنا (لا شعوريا) نفي الآخر (غير الآخذ بهذا الدين، وتلك الأيديولوجيا) فالمؤمن بإثبات ذاته، ووجوده وهويته ينفي الكافر، أو يرميه بالخروج عن النص، وبنفيه "الآخر" الكافر أو المنشق. المختلف عنه بالطبيعة (الروحية) لا بالدرجة، فهو يؤكد وجوده الإيماني.

المؤمن يطلب من المختلف عنه أن يكون ممتثلا لقواعد الديـن أو الأيديولوجيا. وينظر إليه على أنه من الخوارج، أو يقع ضمن دائـرة (الحرب) حسب التصنيف الإسلامي والثنائية المعروفة: (دار الحرب) (دار سلام)، أي التصنيف الإسلامي الكلاسيكي. ويعامل معاملة أهـل الذمة، يحرم من بعض الحقوق التي تتمتع بها الأكثرية.

أما من الزاوية المنطقية، يقول المنطق الشكلي أو الصوري القديم (منطق أرسطو) أن (أ) هي (أ)، (مبدأ الهوية) أو أن الشيء إمـا أن يكون أبيض أو أسود، ولا يمكن أن يكـون اللـون الواحـد لونيـن مختلفين، أو متناقضين في آن واحد.

عندما نقول أن (أ) هي (أ)، فلا يمكن أن تكون لا (أ) في الوقـت نفسه، أي لا يمكن حساب ما رأى "أرسطو" أن تكون (أ) ولا (أ) هما الشيء نفسه وفى آن واحد، وبعبارة أخرى لا يمكن أن يكون الشـيء موجودا أو غير موجود، فهي إما موجود، أو غير موجود، ولا يمكن أن يكون الاثنين معا.

هذا الوجه المنطقي القديم الذي أصاب التاريخ الفكري والإنسـاني بالطريقة "الحدية" والإقصاء للآخر، قد حل ضيفا ثقيلا على العصـور الوسطى الإسلامية والمسيحية، وحتى بداية العصور الحديثة وظـهور المنطق الجدلي.

ولقد حصل توافق عجيـب بيـن المنطـق الدينـي، والمنطـق الأرسطي:

حصل توافق عجيب بين المنطق الأرسطي، وأحد أهـم أسـس العقيدة الدينية --اليهودية والمسيحية، والإسلام -- فبالنسبة إلى الديـن الإسلامي، وأية أيديولوجية، إن الأمر صريح تمـام الصراحـة أي

التصنيف العقائدي القائم على التمييز القاطع بين هوية المؤمن وهوية الكافر، إذ لا يجتمع الاثنان معا في شخص واحد، ولا يجتمعان في مجتمع واحد، والإنسان إما أن يكون مؤمنا أو كافرا، ولا يصح أن يكون مؤمنا وكافرا في أن واحد.

وإذ لم يكن ممكنا أن يكون الإنسان حاملا للمتضادين، وفي العصر المتأخر ابتدعت فرقة المعتزلة مقولة المنزلة بين المنزلتين في صدر حديثها أو حكمها -إن صح التعبير -عن الصحابة الذين شاركوا في حروب علي وبنيه، ومعاوية؛ فقد قالت المعتزلة: إن هؤلاء الناس ليسوا بمؤمنين، ولا بكفرة، بل هم في منزلة بين المنزلتين، ويترك حكمهم إلى الله. والواقع أن الدين في تصنيفه القاطع لا يقبل أن يكون الإنسان بمنزلة بين المنزلتين، فالإنسان إما: "شاكرا" أو "كفورا" وعليه أن يختار طريقا بين النجدين: الفجور أو التقوى، ولا يقبل الدين في جوهره العقائدي أنصاف حلول، أو المواقف المائعة في الإيمان ولا الازدواجية، أو الوقوف في منتصف الطريق.

وفي العصور الحديثة، وخاصة الفكر الفلسفي الأوروبي، وضع الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) ما دعي بـ(العقل الجدلي) الديالكتيك، ويقوم المنطق الجدلي على اجتماع المتناقضات، واندماجها في تركيب واحد، حيث يمكن للعقل الإنساني أن يرى اجتماع: الإثبات والنفي، الهوية واللاهوية، الوضع ونقيضه، الأطروحة وطباقها في لحظة واحدة، وهذه الثنائية تحركها صيرورة دائمة، والوجود كله حركة تعتمد على التناقض، وبعبارة ثانية، يمكن للعقل الجدلي أن يرى في الثنائية القطبية الحادة: الهوية والنفي، أن يتعايشا، ويتجاورا، إنهما في عبارة ثانية، قضية واحدة في الجوهر، فالإثبات هو نفي، والنفي هو إثبات أيضا، والخلاصة أن الوجود يستوعب كلا الطرفين:

الإيمان، واللا إيمان، الإيمان والكفر، والأول لا ينفي الأخر بل يستوعبه، وينطوي عليه، فإذا كان الإيمان (إثبات) والكفر (نفي) فالأول ينفي الأول بعد أن يندمج فيه والعكس، وذلك ضمن صيرورة دائمة، وخصوبة ثرية.

ومن الزاوية الواقعية، في عالم السياسة، هناك السلطة (إثبات)، وهناك المعارضة (النفي) أما في حال وجود سلطة دينية (أو إيديولوجية)، فلا وجود إلا للسلطة والمعارضة (الكفر) أي منفية أصلا حسب أصول العقيدة أو الإيديولوجية، أما بالنسبة إلى العقل الجدلي فلا وجود للسلطة (الإثبات) إلا بوجود المعارضة (النفي)،لأن الإثبات والنفي بالنسبة للمنطق هما أصلا، حالة واحدة، إذ أن السلطة (منطقيا) تستلزم وجود المعارضة، وإلا لا معنى لهذه السلطة الوحيدة في الساحة، ويمكن أن ينتج عن ذلك تعايش السلطة والمعارضة، وأحيانا يتم واقعيا بتقاسم السلطة بين هذه والمعارضة، أي يجتمع الإثبات والنفي في بنية السلطة.

اللامعقول في فكر وحياة الجماهير

رغم أن الجماهير في المنطقة العربية غير متجانسة (ثقافيا)* ويصعب إطلاق لفظ جماهير: Mass عليها حسب اصطلاح الثقافة الغربية، ورغم أن هذه الجماعات العربية تتكون في مناطق جغرافية بشرية مغروزة بين أقليات وطوائف. وملل، ونحل، وأن هذه الأقليات، والطوائف والعشائر قد تمركزت منذ زمن طويل في مناطقها الجغرافية ومنتمية وجدانيا، وفكريا إلى هذه البقع نظرا لتجمع نظرائها في البقعة. فإن العالم العربي في النهاية عبارة عن (موزاييك)** تتجاوز فيه جماعات تتكون عقليتها من مكونات (لا عقلية) تقبع في قاع تفكيرها، والتي كنا قد ألمحنا إليها منذ قليل، أي مكونات (التفكير الأسطوري والديني، والعشائري، والأبوي..).

لقد درس علم النفس الاجتماعي "لا وعي" أو العقل الباطن للجماهير، وتحدث عنها الفلاسفة، والكتاب القدماء والمحدثون، ولكن حسب ما يعرف صاحب هذه السطور فإن الفرنسي غوستاف لوبون Gustsve Lebon كان أول من كرس كتاباً يحلل فيه عقلية أو (نفسية) الجماهير، تحت عنوان: سيكولوجيا الجماهير
La Psychologie des foules (1895) (95)

وُجهَت انتقادات كثيرة إلى مضامين هذا الكتاب. واتهمته الاتجاهات التقدمية والثورية بأنه يتحامل على الجماهير، ويحتقرها بناء على بواعث عقلية برجوازية (براجماتية) وتتلخص آراء (لوبون) في سيكولوجية الجماهير في أن هذه الأخيرة لا عقلية بالتعريف:

"مجنونة بطبيعتها، فهي تصفق في حماسة شديدة لمطربها

المفضل، وفريق كرة القدم المفضل، وتعيش لحظات هوس وجنـــون وهيجان في تشجيعها لهذا أو ذاك، وهي تصطف على جانبي الطريق ساعات، وساعات كي تشهد من بعيد عبور شـــخصية مشـــهورة، أو زعيم كبير، ولو كان الأمر للحظات خاطفة مجنونة.

الجماهير المهتاجة التي تهاجم شخصاً كي تزيحه دون أن تتـــأكد من أنه هو المذنب حقاً، هي مجنونة أيضاً، وإذا ما أحبت الجمـــاهير ديناً، أو رجلاً، تبعته حتى الموت، كما يفعـــل اليـــهود مـــع دينـــهم، والمسيحيون وراء رهبانهم والمسلمون وراء شيوخهم وأوليائهم.

الجماهير يمكن أن تحرق اليوم، وتعدم مـــا كـــانت قـــد عبدتـــه بالأمس، وتغير أفكارها، (ويتم غسل أدمغتها بواسطة وسائل الإعـــلام وتقنياتها المعاصرة)*** ، كما تغير قمصانـــها، وأحذيتـــها، وهـــذه الأعمال المتطرفة لا تنتمي إلى العقل بأي شكل من الأشكال(٩٦).

يتكون للجماهير وجدان خاص أثناء تجمعهم، حول أمر ما وهـــذا الوجدان يحركه اللاوعي، وأثناء هذا التحرك لا توجد قوة في العـــالم يوقف حركتها اللامعقول، وكذلك لا تحتاج في هذه اللحظات الهيجانية المطلقة إلى الحاجات العقلية والمنطقية الإقناعية.

---

*نتساءل فيما إذا كان يوجد بلد أو منطقة في العالم متجانساً (ثقافيا) بالمعنى الإنثربولوجي لمصطلح ثقافة.

* *يمكن لقطع الموزاييك أن تتعايش على مستوى العقل والحوار شريطة تجاوز انغلاقها الإيديولوجي.

*** بين الأقواس، إضافات من قلم صاحب هذه الأوراق.

إن الفرد، وهو خارج نطاق المجموع، وتأثيره في حركتـه، قـد يتحرك بقوة معقولة وبشكل واع، أما الجمهور، فإنـه بمجـرد أن "يتجمهر" يتحرك بشكل غـير واع، إن الوعـي، فـردي بطبيعتـه، واللاوعي فهو جماعي أو جمعي كما كان يرى "غوستاف يونغ".

يفتقد الجمهور إلى الروح النقدية. والمحاكمة العادلة، والإحسـاس السليم الذي يدفع نحو البحث عن الحقيقة متجردة عن الأهواء.

وخلاصة هذا الموضوع: "إن القاعدة التي ترتكز عليـها عقليـة الجماهير هي قاعدة سيكولوجية لا عقلية، ولا منطقية، ولا برهانيـة إقناعية، وهذه السيكولوجية تشكل بنية العقلية الجماهيرية"(٩٧).

دور فرويد في تحليل لاعقلانية الجماهير

انصبت بعض أعمال العالم النفسـي فرويـد (١٨٥٦ – ١٩٣٩) S.Freud على كشف الأهمية الكبرى للدور الذي يلعبه "اللا شعور" أو العقل الباطن في تحريك الفرد، والمجتمـع فـي سـلوك الفـرد والمجموع.

يرى "فرويد" أن الجماهير عموما تتحرك (لحظة اجتماعها) تحت تأثير نوع من الهستيريا وراء الشخصيات الخارقة. يدفعها إلى ذلـك اللاوعي، وصمت العقل الواعي ويحركها الهوس وخاصة الطقـوس الدينية، والعقائد، والأيديولوجيات فـ "لقـد طـرح فرويـد بعـض التساؤلات حول ظاهرة الجماهير، وكيف تتحرك، وتهتاج، وبالتـالي كيف تلعب دورا كبيرا في حركة التاريخ، فقد كانت، مثلا، الجمـاهير النازية (في ألمانيا)، والفاشية (إيطاليا) أمامه في طـور التحضـير، والتهيئة"(٩٨).

إن علم النفس الاجتماعي، والذي قام بالغوص فيه العالم النفسي الآخر، أي: **غوستاف يونغ G. Young** (١٨٧٥- ١٩٦١) حيث درس هذا العالم خصوصا مسألة تلك الجاذبية الساحرة التي يمارس بعض الأفراد القادة، أو الدكتاتوريين على الجماهير، والشعوب، ويفيدنا هذا العلم، كما يرى مترجم كتاب سيكولوجيا الجماهير، في إضاءة عقولنا عندما يشرح لنا جذور تصرفاتنا العمياء والأسباب التي تدفعنا إلى الانخراط في جمودها، والحماسة الشديدة للزعيم فلا نعي ما فعلناه إلا بعد أن نستفيق من الغيبوبة، وربما جعلنا ذلك نندفع حيطة، وحذرا في الانبطاح أمام زعيم جديد قد يظهر"(٩٩).

(لنتأمل ظاهرة الكاريزما: (Charisma) وتحليلها في العصر الحديث من قبل علماء النفس والاجتماع).

وحاصل القول: لقد وجد "يونغ" أن اللاشعور الجمعي يلعب دورا كبيرا في حياة الفرد والمجتمع، ومن المفيد أيضا لمن يريد الاستزاده في هذا الموضوع، الاطلاع على دور الأسطورة، والرمز في تحريك الفكر الإنساني، لدى غوستاف يونغ.

يرى اورتيغادي غاسيهOrtegay Gasset

أن الزحف اللاعقلي للجماهير يشكل خطرا على الحضارة، إذ أن الجماهير لا معايير عقلية لها، ولا ثقافة، وترفض أن تبدي أسبابا لما ترتئيه، وتفرض ما تراه بالعين، لا بالعقل، أن لها الحق في أن تكون لا عقلانية، ولا منطقية، بل تبدي سخرية عظيمة إزاء معايير المنطق والعقل (١٠٠).

أما فلهلهم رايش (١٨٩٧-١٩٥٧) Reich Wilhelm

فقد وضع كتابا ملفتا للنظر بعنوان: اسمع أيها الإنسان الضئيل Ecoute Petit Homme ويقصد بالإنسان الضئيل رجل الجمهور أو رجل الشارع، ويرى أن الجماهير كانت مسؤولة عن خلق شخصية "هتلر"، والخضوع له، وكانت هي أيضا المسئولة عن قتل الفيلسوف سقراط.

يقول "رايش" مخاطبا الإنسان الضئيل: "أنت قتلت سقراط، إذ اتهمته بأنه يحط من شأن أخلاقك الخيرة، ولكن سقراط، أيها الإنسان الضئيل، مازال يحط من شأن هذه الأخلاق، وأنت قتلت جسم "سقراط" ولكنك عجزت عن قتل عقله، وأنت تواصل عملية القتل، ولكنك تقتل بأسلوب خسيس وخداع"(١٠١).

ويقول الدكتور مراد غالب، مخالفا آراء " اورتيغادي غاسيه" ورايش بأن رجل الشارع، أو الإنسان الجماهيري في القرن العشرين هو من أفرز الثورة العلمية، والتكنولوجية، فهذه الثورة قد أفرزت ظاهرة يمكن تسميتها بظاهرة يطلق عليها بالإنجليزية Mass، وترجمتها الحرفية "الكتلة"، ولكن يمكن ترجمتها بتصرف تعني الجمهور، فيقال مثلا: Mass Media ووسائل إعلام جماهيرية Mass culture ، ووسائل اتصال جماهيري Mass Communication .

الواقع ليست وسائل الإعلام وحدها مسئولة عن تشكيل عقلية الجماهير، بل إن أوضاع الجماهير الثقافية، أي عدم تمكنها من تحكيم العقل في النظر إلى الأشياء تعود إلى أسباب سياسية واقتصادية وتعليمية وأيديولوجية (عقائدية) فلقد لعبت العقائد الدينية، والإنسانية في تشكيل دوغما Dogme جماهيرية. وخلقت لديها إيمانا بسلطة

المتن، وتكونت عقلية جماهيرية لا تزال معاصرة تتبع الأصول العقائدية والأيديولوجية، ورجالها، ورمزها، دون إعمال عقل، أو شك، أو تساؤل، أو نظر، وإذا رمنا التفسير المباشر لتأثير العقائد في تشكيل "لا عقل الجماهير"، فعلينا ألا ننسى أيضا الأثر العظيم الذي تلعبه في العصور الحديثة السلطة السياسية، ووسائلها وأجهزتها الإعلامية.

تناول "رايت ميلز" wright Mills مصطلحي مجتمع جماهيري، ووسائل اتصال جماهيرية، فرأى أن المجتمع الجماهيري يتلقى من وسائل الإعلام الجماهيرية كل ما يعتقده ويراه، بحيث يستحيل على الفرد أن يكون له أي تأثير، وأن تشكيل الرأي العام محكوم بسلطات تتحكم في القنوات التي يراد فيها الرأي العام أن يتشكل في صيغة معينة، ومن ثم فالجماهير ليست مستقلة عن المؤسسات، بل إن ممثلي هذه المؤسسات يخترقون الجماهير، ويضعفون أية بادرة استقلالية في تشكيل الرأي العام"(١٠٢).

إننا لا نعفي الجماهير من المسئولية في حالة الانقياد، وعدم إعمال العقل في الأمور الخاصة والعامة، وإن المسئولية مشتركة في خلق هذه اللاعقلانية الجماهيرية، ولاسيما أن هذه الجماهير تعيش، وخاصة في أيامنا هذه، في مناخ إمكانية التعرف، وعلم الحقيقة، وتنمية مهارة العقل في الحكم، والنظر والسلوك، إن زحمة الحياة والسعي إلى العيش الرغيد والبحث عن لقمة العيش لا تعفي الفرد والجماعة من التفكير العقلي.

العقل ليس إلها:

ليس النزوع الصوفي لتأليه العقل، من العقلانية في شئ. بل إن العقل والعقلنة، مسألة إنسانية، وتعني التعامل مع الأشياء، والنظر إلى الكون، والوجود، والحياة نظرة استبصار عقلية، متجاوزة المواقف الانفعالية المباشرة، إن الوجه التقدمي أو العقل الناقد، هو الذي يعنينا

هنا. رأى " هنري لابوريت " Henri Laborite أن العقل ليس شيئا مجردا، إنه (علاقة ورابطة) كما في العربية، وإنه وظيفة وآلة وأداة مرتبطة ببنية الدماغ الإنساني، ويتحول ويتطور كتقنية، مع الثقافة والمعرفة، إلى قوة قادرة على تفكيك المادة وفهم الوجود، والظواهر الإنسانية، علما أنه لا يجوز إغفال دور القوى الإنسانية الأخرى في مساعدة العقل على الإحاطة بالأشياء، أعني: الحدس والاستبصار الجواني للنفس الإنسانية(١٠٣).

لقد كان من نتائج عصر التنوير في القرن الثامن عشر أن نصب الأوربيون العقل إلها يعبد، يحل محل إله الدين، وذهب الهيام المطلق بقدرة العقل البشري على حل مشكلات الحياة، مذهبا قصيا، حتى أصبح العقل هو الوسيلة والغاية، المبتدأ والخبر، الأول والآخر، لا تعلوه سلطة أخرى.

لقد كان عصر التنوير ثورة كبرى في الحياة الأوربية، وقد وقف هذا العصر ضد الخرافة، والأسطورة، والعقائد الغيبية.

والواقع لا تعود مسألة العقلنة إلى عصر التنوير تحديدا، من الناحية التاريخية، بل يعود التركيز على إعمال العقل إلى الحضارات الكبرى في الشرق القديم، رغم هيمنة التفكير الأسطوري والذي كان كبطانة وجدانية تغلف هذا العقل. بيد أن التعويل على العقل، مستقلا تمام الاستقلال، لم يكن ليأخذ مجراه رغم تبوء العقل مكانة ممتازة في الحضارة العربية الإسلامية، حتى جاء وجعل عصر التنوير (مع عدم إغفالنا الإرهاصات العقلية السابقة عليه) من العقل السلطة العليا.

العقل منهج في التفكير وتراكم معرفي:

يعني العقل النظام، ضد الفوضى، والدقة ضد اللغة الفضفاضة، والبحث عن الحقيقة والتقيد بمعايير العلم الموضوعية، إنه وسيلة

تقدم، مرتبطة بالغاية التي هي تحصيل السعادة.

والعقل يعني كذلك تحييد المطلقات وجعلها ضمن اعتقادات الفرد، إنه –أي العقل –مواجهة العقائدية، وعملية غسل الدماغ التي تقـوم بها الأيديولوجيات والعقائد، وكذلك مواجهة الجنون، والدمار اللذيـن يلحقهما اللامعقول بالعقل، فكل شيء يمكن أن يمثل أمام محكمة العقل ومعاييره الإنسانية، وكل ما في الكون والطبيعة والظواهر الإنسـانية يمكن أن يراها العقل بعينـه، لا بعيـن الأسـطورة، والانفعـالات والهيجانات الجامحة.

"لتكن لدينا الشجاعة في استخدام عقلنا":

تلك عبارة نطقها الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤- ١٨٠٤) منذ مائتي سنة عندما أجاب عن سؤال: ما هو التنويـر، لقـد عنـى الفيلسوف بذلك: خروج الإنسان من قصور اقترفه في حـق نفسـه، وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه مـن إنسـان آخر، أي أن يستخدم الإنسان عقله مستقلا ودون وصاية من أحد، ولا من سلطة دنيا، أو عليا، والواقع لن يفلح العقل في تحقيق التقدم إلا إذا أصبح قضية مشتركة، ومسألة اجتماعية، لا فردية فقط.

وتحدث الفيلسوف الألمـاني هيدغـر (١٨٨٩ –١٩٧٦) عـن العنف الذي يختفي وراء إنسانية العقل الأبوية(١٠٤). ولكن يمكـن أن نتساءل في هذا الصدد: لم لا نستبدل سلطة الأب الأسـرية بسـلطة العقل مجردة من العنف والتطرف، ويكون الحوار العقلي هو البديل؟

"المفكر العقلاني يميل إلى الموقف القـائل بـأن المعقـول هـو الطبيعي، ولا وجود لشيء خارق للطبيعة. وأقصى ما يعترف به هـو المجهول الذي قد يصبح يوما معلوما ولا مكان في مخططه الفكـري

لقوى خارقة، ولا محل في عقله للاستسلام العيني لعقيدة ما"(١٠٥).

العقل كأداة، ومعرفة، رؤية وضعية لنسق العالم، ولأنحاء الوجود الإنساني فتؤسس نظرتنا للعلوم على مبدأ السببية دون مجاوزة هـذا العالم، إن صاحب العقل يهتم بالحياة في هذه الدنيا، وليس بالبحث عن الحقائق الأزلية فيربط بين العقل، والوقائع العينية"(١٠٦).

أما بالنسبة للعلم، فهو عقل بداية، ونهاية، وقد يتخلله حركـة عشـق وهيام لموضوع العلم، ويتوسطه دافع وشغف، وهذه مواقف تحفيزية، ومنشطة لعمل العقل، في العلم، ولكـن العلـم، كتجربـة، وخـبرة، واستبصار في الأشياء، ومحاولة معرفة فهذه من شأن العقل المفكر.

كذلك، فإن العلم، سواء أخذناه بمعنى نسق المعارف المتراكمـة، أو بمعنى أسلوب معالجة المشكلات، أي المنهج العلمي، لا علاقة له فـي الحالتين بالغيبيات، أو بمسائل ما بعد الطبيعة(١٠٧).

تفجير المعركة بين العقل / اللاعقل :

منذ بداية ما سمي بعصر "النهضة" في العالم العربى، والغالبيـة المطلقة من جماعتنا العربية تأخذ بالحداثة بدءا من اسـتعمال الأدوات في الحياة اليومية، وانتهاء في أيامنا هـذه بـآخر منتجـات التقـدم التكنولوجي. ولم يجد الإصلاح الديني في عصر النهضـة جـدوى بإعمال العقل المستقل ولا نفعا، بل لقد أثرى هذا الإصـلاح طغيـان الاعتقاد، وبالتالي التركيز على الحياة الوجدانية التي تفسح المجـال لحركة اللامعقول أن تمتد، وتشمل مختلف جوانب، وظواهر حياتنـا اليومية، والفكرية والثقافية.

لقد رفض الإصلاح الديني مبادئ العقل العلمي، والتقدم العلمـي،

ومبادئ العقل الفلسفي والمنطقي، كالتجربة والبرهان، والشك والفكر الناقد إذا لم تكن شروطا لتأكيد المطلق، وبرهانا وغائية أخيرة لوجود الله، كذلك رفض رفضا قاطعا تحييد الاعتقاد.

لقد بدأ الهجوم، والعدوانية على المحاولة المتواضعة من قبل المشتغلين بالعقل المستقل، واعتماد العلم (كمحاولات شبلي شميل، ولطفي السيد، ورفاعة الطهطاوى، وطه حسين، والمشتغلين المحدثين في الفلسفة، كزكي نجيب محمود، وفؤاد زكريا) مما اضطر بعض هؤلاء إلى التراجع عن الدفاع عن العقل نتيجة الهجوم الذي شرع به الإصلاح الديني، شرع هذا الهجوم كما قالت هذه السطور في البداية، من قبل المتشددين، أو المتطرفين في العقيدة، سواء لدى المسيحيين، أم عند المسلمين، ولا يزال هذا الهجوم يشتد أواره حتى أيامنا هذه.

رأى أحد الباحثين أن الهجوم على العقل بدأ تحديدا منذ (١٩٠٩- ١٩١٥) وذلك بنشر كتب تهاجم العقل تحت ستار نقد الحداثة. وقد بلغ عدد هذه الكتب ما يقرب من اثني عشر كتابا بعنوان (الأصول) وقد وزعت مجانا وأرسلت إلى اللاهوتيين والقساوسة، تنقد محاولة المسيحيين التكيف مع الحداثة، أي مع العلم والعقل، وذلك بنقد نظرية التطور الداروينية، ونقد الليبرالية، وتدعو أصحاب هذا الهجوم إلى التقيد بالنص الديني، وتدعو إلى رفض إعمال العقل في النص أي تأويله الذاهب إلى تفهم الحداثة، وبهذا ظهر التشديد على ما سمى في أيامنا على الاتجاه الأصولي.

وانتقل هذا الاصطلاح الغربي إلى عالم الإسلام، حيث توافق مضمون هذا الاصطلاح مع التشدد الإسلامي، وظهرت موازاة بين: الأصولية المسيحية والأصولية الإسلامية، وكذلك اشتدت الأصوليات في الأديان الأخرى.

لقد مثل الأصولية الإسلامية الناقدة للحداثة، وأساسها العقلي

أبو الأعلى المودوي (الباكستان) وسيد قطب (مصر) وأخيرا الخميني (إيران) وقد وجد البعض في هذه الظاهرة صحوة إسلامية، ولكن سيد قطب اشتد في موقفه حيث نظر إلى القرن العشرين كاملا على أنه قرن الجاهلية (انظر كتابه: جاهلية القرن العشرين).

لقد عملت الاتجاهات المتشددة على حمل الناس جميعا بالأخذ بالأصول الاعتقادية وإقناعا بالعنف، وهم صاغرون، بمنطلقاتهم العقائدية كما يتصورونها على أنها الحقيقة المطلقة، وقالت بتغليب كل أنماط النقل، وتحييد العقل، أو التمسك بأهداب الدين كما استقر في مخيلتهم.

لا يخفى أن هناك صراعا بين العقل واللاعقل على صعيد حياة الفرد الشخصية، وعلى صعيد حياة المجتمع، فعلى صعيد حياة الفرد، إن الصراع يدور بين العقل والأهواء، وعلى صعيد الحياة العامة يتجسد هذا الصراع في خوض الحياة، وخنق الحرية، والهجوم على المخالفين للأعراف والتقاليد، وأنماط الفكر التقليدية التي ألمحنا إليها سابقا.

فالشارع العربى لا يلتزم بالعقل حتى بمعناه العربي التقليدي كالرشاد، والحلم، والنهى، والحجر، فضلا عن لا مبالاته إزاء التعرف على منهج التفكير العقلي المستقل عن الاعتقاد، وعن استقلاله عن أنماط التفكير اللاعقلية التي ألمحت إليها الصفحات السابقة. إننا مع تأجيج الصراع بين قوى النور، وقوى الظلام، بين الفكر الملتزم التزاما أعمى بإلغاء العقل، أو نفيه، أو تدميره. وبين العقل الرحب، الذي تلتقي في ساحته مبادئ الفكر العلمي، ومبادئ العقل الفلسفي مع ما تتضمنه هذه المبادئ من حرية الفكر، والأخوة، واحترام الآخر في قوله، وفعله.

مواجهة رواسب القرن الماضي:

دون أن نرجع إلى الوراء تاريخيا إلى حقب قديمة، وكي نظل في إطار تاريخنا القريب، نود أن تقول هذه الصفحات كلمات سريعة عن القرن العشرين:

لا نغفل انتصارات هذا القرن العلمية، وخاصة في الربع الأخير منه، حيث أقفل القرن المذكور أبوابه عند انتصارات مذهلة في التقدم التكنولوجي. التفجير المعرفي، والمعلوماتي والإعلامي، وغزو الفضائيات الساحات العالمية، وكشف المستور عن سطح الكرة الأرضية، وأخيرا تقنيات الإنترنت والاتصال الكامل مع مختلف أنحاء الكرة الأرضية أو القرن العالمية، وكذلك في مجالات الهندسة الوراثية، والاستنساخ الحيواني والبشرى ... الخ.

أما من النواحي السلبية، وهى تطغى مع الأسف على النواحي الإيجابية لحياة هذا القرن، فقد سجلت إحدى المجلات الأسبوعية في محورها العام بمناسبة بداية الألفية الثالثة "بأن القرن العشرين يعتبر قرن القطيعة مع عصر العقل. رغم اجتياح الكشف العلمي، والتقدم التكنولوجي، لقد حل في تضاعيف تفكيرنا المعاصر اللاعقل، ويرى مؤرخو هذا القرن أن اللاعقل قد خطى خطواته المشؤومة نحو إحداث حربين عالميتين دمرتا المنجزات الحضارية التي دام تراكمها نحو تسعة عشر قرنا.

ورأى بعض الباحثين في القرن، وكما سجلت مجلة الإكسبريس الفرنسية Express أن القرن العشرين يمكن تلخيصه بكلمتين: قون "البربرية والتقدم"(١٠٩) إن التقدم المعني هنا، هو التقدم العلمي، والتراجع يعني تراجع القيم الأخلاقية للإنسان الحضاري.

لقد استوطنت البربرية في عقل الغالبية المطلقة في الغرب الحضاري، وهى أيضا مستوطنة في عقل الغالبية في العالمين العربى والإسلامي، وصفحاتنا السابقة أفاضت الحديث حول ثنايا هذه البربرية أو اللامعقول في حيواتنا.

والآن كيف السبيل إلى المواجهة، والانتصار على البربرية الإنسانية؟

كيف نعلو بهذه الرواسب إلى سطح الوعي، ونعمل على إزالتها ؟

المواجهة تتم، بالنقد، والمحاجة، والحوار، وأخيراً الحسم لصالح العقل المستقل عن اللامعقول، والاستناد إلى معايير وقيم العقل.

مواجهة الانفلات اللاعقلاني:

إن سجل الانفلات اللاعقلاني في العالم المعاصر حافل بالنقاط السوداء إن صح التعبير، فعلى المستوى العالمي أسندت التسعينات من القرن الماضي "تغشّى النزعات اللاعقلانية أعنى : العولمة المستوحشة" وهى إفراز ظاهرة العولمة أو الكوكبة الاقتصادية Globalisation، والتى حملتها الرأسمالية الغربية إلى عالمنا، وهذا الوجه الآخر من العولمة، إنه نمط من الانفلات اللامعقول وحيث ظهرت في الغرب في ثوب نزعات الانفصال عن جسد الدولة والأمة، وانهيار مفهوم الدولة، والنزعات العرقية السوفيتية والدفاع عن الهوية بالهجوم (بإلغاء) الهويات الأخرى. كذلك لا نزال نشهد عودة المكبوت الديني، والطائفي والعشائري والقبلي والتأهب الدائم لقتل الآخر في سبيل الحفاظ على الأنا لتعيش حياتها الاستهلاكية الرخيصة، والاستغراق في عوالم المتع التافهة، وهى ظواهر، وإن

أصبحت ظواهر تعم الجميع، وقد انقلب الإنسان المعاصر ذئباً على أخيه الإنسان، أما في عالمنا العربى، فقد شهدت البربرية أولى انتصاراتها منذ السبعينات من القرن الماضي بنشوب الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥)(١١٠).

تتفاقم المشكلات في عالمنا في ظل غياب الحرية الحقيقية، وشرعية العقل، وفى ظل الغياب المطلق لمفهوم التعايش في الحياة والوجود بالمعنى العقلي والقائم على قبول الآخر، نداً، ورديفاً، وأخاً، وخصماً، ومحاوراً.

إذن لا بد من مواجهة هذا الانفلات الخطير، والتي تدفع إليه أنماط التفكير التي ذكرت في بداية هذه الصفحات، حسْم الثورة العقلية لهذا الانفلات.

العقل ضرورة وليس ترفاً أو حديث صالونات:

إن التعويل على العقل المستقل عن أنماط التفكير التقليدية، ليس ترفاً ثقافياً ولا تسلية فكرية، ولا حديث (صالونات أدبية) أو صالونات مخملية أو ندوات بين الأكاديميين والباحثين، بل هو ضرورة حضارية، وهو التزام من قبل أهل الفكر، والثقافة ورجل الشارع، وهو قبل كل هذا التزام من قبل أنظمة الدول، وذلك لمقاومة الواقع الذي يتحرك نحو العيش بمفهومه البدائي والذي لا يلبي سوى أولى أولويات الحاجات الإنسانية أي الحاجات البيولوجية. دون الوصول إلى تحقيق الذات الإنسانية العقلية.

القسم الرابع

من العقل والتقدم إلى التفكير في مشكلات الإنسان المعاصر

- محاربة الفقر
- تحقيق الأمن الغذائي ، والمائي ، والصحي ..... الخ
- العقل والعدالة

محاربة الفقر :

مقدمة : حديث الأرقام يعكس مشكلات الإنسان المعاصر

ذكر تقرير حديث للأمم المتحدة ما يلي:

"إن معدلات جرائم القتل العالمية كانت ٨٢ لكل مائة ألف شخص في الفترة بين ١٩٨٠ و ١٩٨٤، لكنها قفزت في العقد التالي بنحـــو ١٥ في المائة في الدول الغربية، و٨٠ في المائة فـــي بعــض دول أمريكا اللاتينية إلى أن تصل إلى ١١٢ في المائة في العالم العربى.

بلغ حجم تجارة المخدرات التي تعتبر عاملاً أساسياً فـــي إنتـــاج العنف والجرائم نحو ٤٠٠ مليار دولار في العام ١٩٩٥، أي زهاء ٨ في المائة من إجمالي التجارة العالمية، وهى إلى تصاعد مستمر.

ففي فترة التسعينات تضاعف إنتاج أوراق الكوكا مرة، والأفيـون ثلاث مرات فيما قفز عدد مدمني المخدرات في العـــالم إلـــى ٢٠٠ مليون في الحقبة نفسها.

تشير الدراسات الأخيرة إلى أنه مع كل عشر جرائـــم إضافيـــة ينخفض مستوى الاستثمار الاقتصادي بنسبة ٤ في المائـــة. وعلـــى سبيل المثال الخوف من الجرائم في المدن الأمريكية الذي يؤدى إلـــى رفض العمل ليلا يؤدى إلى خســـارة اقتصاديـــة صافيـــة قدرهـــا ٤ مليارات دولار وصلت كلف العلاج من الإصابات القاتلة وغير القاتلة بالرصاص في الولايات المتحدة وحدها العام ١٩٩٢ إلى ١٢٦ مليـــار دولار أي نحو ٢ في المائة من إجمالي الدخل القومي الأمريكي.

وفي أمريكا اللاتينية يتم تخصيص ما بين ٣ إلى ٥ في المائة من

الدخل القومي لمكافحة الجريمة والعنف، وفـــي نيوزيلانـــدا بلغـــت التكاليف السنوية للعنف المباشرة للعنف ١٢ مليار دولار أي أكثر من إجمالي الصادرات الصوفية النيوزيلاندية الشهيرة .

ويلخص التقرير العالمي للأمم المتحدة حول الجريمـــة والعدالـــة للعام ١٩٩٩ ، مسيرة الإجرام هذه بالكلمات التحذيرية الآتية: "العنـف إلى تصاعد وهو يكاد يصبح وبائيا، وبشكل خطير ما لم تتم معرفـــة أسبابه وتدارك مضاعفاته"، يضاف إلى ذلك مشكلات الفقر والجـــوع والعطش في القارة الإفريقية.

(ذكره سعد محيو /في/صحيفة الخليج١٤ /٤ /٢٠٠٠)

لسنا من دعاة التفكير العقلي المجرد عن واقع الحياة ومجريـــات الأمور، ولسنا من دعاة (البراغماتية) في التفكير والتنظير، بل إن مـا يهم صاحب هذه الأوراق هو محاولة التركيز على الدعوة إلى التفكير في مشكلات الفرد، والمجتمع، وواقع الحياة، وخاصة فـــي وجهـــها الحالي، غير القديم.

لم تخل الحياة يوما من المشكلات، كما لم تخل حيـــاة الفـــرد، أو المجتمع من المشكلات، ولا أظن أن عاقلا يزعم أن حياته، أو حيـــاة من حوله أو حياة المجتمع الذي يعيش فيه، إن هذه الحيـــوات تخلـــو تمام من المشكلات، وليس بداهة أن يواجه جميع الناس والمجتمعـــات المشكلات بطريقة تفكير واحدة، وليس بداهة أن يواجه جميع النـــاس المشكلات بطريقة عقلية راشدة، أو بنظرة تأملية بغية إيجاد الحلـــول للمشكلات.

إن مشكلة العيش أولى المشكلات التي يواجهها الإنسان منـــذ أن يعي الحياة، إذ لا يمكـــن أن تســـتمر الحيـــاة تحـــت وطـــأة القلـــق والاضطراب بسبب الحاجة إلى لقمة العيش، أو بعبارة أخرى، عندما يعي الإنسان أن مشكلته الكبرى، في استمرار حياتـــه علـــى الأرض

تقتضي تأمين لقمة العيش، فإن ذلك يعني أنه دخـــل دائــرة المــوت والفناء، وهي في نظرنا أخطر مشكلة يواجهها الفرد أو المجتمع.

إن الهم الوجودي يبدأ إذن من سعي الإنسان نحو حيـــاة كريمـــة تخلو من العوز والفاقة والحرمان، ولعل هذه المشكلات تتجلى فـــي أسوأ صورها لدى شعوب ما سمي بالعالم الثالث أو الجنوب:

"لقد سقط العالم الثالث في هوة الفقر، والحاجة، ومعه دول شرقية أوروبية كانت اشتراكية -شيوعية في وقت مضى.

وبالمعنى الاقتصادي لقد تضاعف الاقتصاد العالمي من خمـــس مرات منذ العام ١٩٥٠، وبات معه الدخل العـــالمي للفــرد (٦، ٢) أضعاف ما كان عليه في تلك السنة، ومع أن أكثر من مليار نسمة من (٦ مليارات) هم عدد سكان الكرة الأرضية في نهاية القرن العشرين، مقابل ٣ مليار (١٩٦٠)، و ٦،١ مليار في مطلع القـــرن العشـــرين يعيشون بأقل من دولار واحد في اليوم، إلا أن المتوســـط العـــالمي للدخل الفردي يزيد على (٥٠٠٠) دولار في السنة.

وبالمقابل، فإن ٨٠ % بالمائة من الموارد الطبيعية فـــي كوكبنـــا يشرف عليها، ويستهلكها ١٣% من الدخل العالمي، بينما ٢٠% مـــن سكان العالم الذين هم الأكثر فقرا فيمتلكون ٤،١ بالمائة فقط. وفـــي السنوات الثلاثين الأخيرة، انتقل الفارق بين البلدان الفقيرة، والبلـــدان الغنية من ١ إلى ٣٠، إلى نسبة ١ إلـــى ١٥٠عـــام ٢٠٠٠م (١١١)، ويصاحب هذه الحالة نمو ديمغرافي (سكاني) مخيف وخاصـــة فـــي الدول النامية.

((صحيح إن الفقراء يتكاثرون أكثر من الأغنيـــاء، وأن الـــدول الفقيرة يقوم سكانها باستنزاف الموارد بشكل أسرع من الدول الغنيـــة المتقدمة، لأن تلك الدول البائسة مضطرة إلى ذلك من أجل البقاء على

قيد الحياة فقط.

لقد أصبح الفقر مسؤولا عن تحول الإنسان من "ثروة مهمة للحياة" إلى متألب عليها، حقا إن حق كل إنسان طفلا كان أم راشدا، أن يعيش حياة لائقة ولكن" كل يوم تحدث في العالم هيروشيما جديدة بسبب الجوع، والفقر يموت ٤٠ ألف إنسان)) (١١٢).

((تؤكد الإحصاءات أن التركيز الهائل للثروة في يد قلة من أباطرة المال، والأعمال خلال العشرين سنة الأخيرة مع تنامي ظاهرة العولمة، جعل الدول الفقيرة والنامية تغرق في الديون، بعد أن غرقت في الفقر، والجهل والمرض، وهذا العامل الاقتصادي يؤكد صراعات، وحروبا لا تنتهي داخل الدول الفقيرة وفيما بينها))(١١٣).

كتبت السيدة "ليلى تكلا" تقول: ((لعل من أخطر نتائج الفقر الحاد الذي يهدد الثروة البشرية أنه يعرقل أي تقدم، ويقضى على أهداف التنمية))(١١٤).

عندما تقول الكاتبة: ((أن الفقر يعرقل أي تقدم)) وأن التقدم في نظرنا هو من نتاج العقل، يكون الفقر علة تراجع التفكير العقلي منطقيا.

وتجد الكاتبة تكلا أن مشكلة الفقر كأداء، تدمر السلام، الاستقرار الاجتماعي والسياسي، تقول في فقرة لا تخلو من أهمية : ((.. والفقر والحرمان يشكلان خطرا على السلام والاستقرار السياسي والأمني، فهو يخلق بيئة خصبة لنمو أشكال مختلفة من الانحراف، والتطوف، والمعارضة الجامحة (اللامعقولة)، إذ يحول بعض الفقراء خاصة الشباب الغاضب احتياجاتهم، وتوقعاتهم الضائعة إلى صراع بائس من أجل الحياة، ويولد أشكالا من العنف والمقاومة المنظمة.

وقد ظهرت مجموعة من المقالات المترجمة في صحيفة الخليج تحت عنوان: نحو عالم أكثر عدلا وهو من إعداد السيد"عمر عدس".

ولا نجد فائدة من إعادة نسخ أو تلخيص هذه المقالات بل نكتفي بذكر عناوين هذه المقالات وهي(١١٧) : (نحيل القارئ إلى المرجع المذكور).

- الإشارة في صدر هذه الترجمات إلى اجتماع عالمي في مقر الأمم المتحدة في سبتمبر عام (٢٠٠٠) يضم عددا كبيرا من زعماء العالم تحت سقف ما يسمى "قمة الألفية".
- العناوين التي تصب في ميدان الفقر في الدول الأفريقية، هي من قبيل: (لماذا يتقاعس الغرب عن إغاثة أفريقيا؟)، (استئصال الفقر)، (أثيوبيا في انتظار العون).

تحرير الفقراء:

أخيرا تتحدث الدكتور "تكلا" حول إمكانية تحرير الفقراء بمشروع تنموي متكامل، وهي تنحو علميا بمعالجة المشكلة، واقتراح الحلول فترى أولا:

١. "ضرورة الاعتراف بوجود حالة الفقر "بتعبير علمي لحل المشكلات: التعرف وتحديد المشكلة.
٢. ضرورة توفير أسلوب الحكم الذي يقوم على سيادة القانون والمساواة الديمقراطية. (وهنا تضع الافتراض الممكن للحل)
٣. توفر الالتزام السياسي والإدارة السياسية لمواجهة المشكلة.
٤. "التخطيط الاجتماعي".

٥. "الثقة في قدرة الفقراء على الإسهام في حل مشكلاتهم ومشاركتهم في وضع الحلو وتفعيل نجاحها"
٦. "دعم العمل التطوعي".
٧. الاعتراف بأهمية الدولة ودورها وفاعلية هذا الدور ...

مشكلة الأمن المائي:

تعيش المجتمعات النامية المعاصرة، علاوة على مشكلة الفقر مشكلة ثانية لا تقل في خطورتها، وآثارها المدمرة على حياة الإنسان عن مشكلة الفقر، ألا وهي مشكلة الشح المائي والجفاف، لقد بدأ تسليط الأضواء على هذه المشكلة منذ بداية التسعينات من القرن الماضي. وذلك بدراسة أمريكية نشرتها إحدى الباحثات في أمريكا حول مشكلة الشح المائي، وجفاف نهر النيل في (مصر) ومضاعفات هذه المشكلة على حياة المصريين الذين يعتمدون في مياه الشرب والري على المصادر المائية على نهر النيل، حيث قيل قديما: أن مصر هبة النيل.

ثم كبر ملف الدراسات والأبحاث والمقالات والمؤتمرات، والندوات التي تدور حول مشكلة الشح المائي، ومضاعفاته، وخطورة نتائجها، ولا يزال هذا الملف يكبر، حتى إعداد هذه الكلمات، في الصحافة اليومية، والمجلات والمصادر المتخصصة...الخ.

ولعل أخطر تنبؤات يضعها الدارسون لمشكلة الشح المائي، وخطر الموت من العطش، ونشوب حروب، وصراعات بسبب التنافس للاستيلاء على منابع ومصادر المياه، وكذلك التهديد بالموت عطشا -في بعض البلدان الإفريقية التي تعاني من مشكلة الجفاف (انظر ما كتب، وما أذاعته وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة في الأسبوع الأول من شهر إبريل ٢٠٠٠ عن تهديد الجفاف، والموت

عطشاً لثمانية مليون نسمة في إثيوبيا الإفريقية، وهو رقم مرعـــب، يدعو الإنسان إلى أن ينتفض غضباً صارخاً ضـــد هــذه الأوضـــاع المأساوية.

خلاصة المسألة إن مشكلة الفقر والموارد المائية، والعبث بها، مشكلات لا تبعد مسئولية العقل الإنساني عن المساهمة في حل هـــذه المشكلات، كذلك لا يبيح التفكير العقلي قعود الإنسان عن بذل جـــهد، والعمل وصناعة المعجزات بالجهد والبحث عن حلول للمشكلات.

إن قدرة الإنسان، تتمثل في السيطرة على الطبيعة، وإيجاد الحلول المطلوبة لمشكلاتها، إن الإمكانات الفكرية التـــي يملكـــها الإنســـان يصعب التنبؤ بقدراتها الباطنة، وإمكانات الإنسان أكثر بكثـــير ممـــا تظهر على السطح.

العقل والعدالة:

ما من فيلسوف، أو عالم اجتماع، أو اقتصاد، أو مثقـــف ملـــتزم بقضايا مجتمعه أو أديب عالج مشكلات اجتماعية بلغته، إلا وتحـــدث، أو طالب، أو انتفض غضباً للظلم الاجتماعي الـــذي يعيشـــه فقـــراء مجتمعه.

فالعدالة الإنسانية، وخاصة عدالة العيش الكريم مطلـــب عقلـــي، ووجداني وعندما تحدث المفكرون عن همومهم في استئصال الظلـــم، فكانوا يطالبون بتحقيق فرص الحياة الكريمة لجميع البشر، وتحقيـــق تكافؤ الفرص لجميع أفراد المجتمع دون تمييز، من تعليـــم وصحـــة، ودخل معاش صالح، أو يطالبون بكلمة مختصرة: ردم الـــهوة بيـــن البؤس والترف وبين رغد العيش، والفاقة والحرمان بين الأدنى فـــي الحصول على لقمة العيش والأعلى في التبذير، بين الذي ولدوا وفـــي أفواههم ملاعق من ذهب، وأولئك الذين ولدوا في أكواخ مـــن قـــش

مرتجف ينتصب أو يميل تحت رحمة الرياح العاتية، أو ترعرعوا وسط المستنقعات وعلى القوارب الخشبية أو بين القبور، لقد طالبت الأديان السماوية والوضعية بتحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن مع أسف عميق أخذهم تحقيق كل دين ذاته إزاء الدين الآخر، يغلب مطلب هذا الدين أو ذاك بتحقيق العدالة، وأخذت الأديان وخاصة في أيامنا هذه تميل إلى تدمير بعضها بعضاً، إننا نعيش في أيامنا حالة من الحروب الدينية على طريقة العصور الوسطى (١١٨)، ولا يطالب العقل بإلغاء الغني لحساب الفقير، ولا بتجريد الغني من أمواله لتوزيعها على الفقراء ولا يسحق المفكر العقلي لا في النظر، ولا في العمل الفقير لأنه عاجز، وضعيف، بل إن من مقومات العقل كما يفهمه صاحب هذه الأوراق هو تحقيق تعايش عادل بين أولئك الذين يبذلون جهودهم في تحقيق حالة الغنى، وتقدير أولئك الذين يبذلون جهودهم للخروج من حالة الفقر، ولكنهم قد يعجزون عن إيجاد المخرج من حالة الفقر لأسباب ما، ففي هذه الحال لا بد من مساعدتهم، وشد أزرهم، ودفعهم إلى بذل مزيد من الجهد ويشاركهم في إيجاد المخرج المطلوب مع مساعدتهم، على تشجيعهم الكامل للعمل والإنتاج.

وليس معقولا أن يمنح الإنسان جهده وعمله إلى كسول، وقاعد عن العمل والإنتاج.

العقل والديمقراطية(الديمقراطية مشروع عقلي اجتماعي):

كانت أهم المبادئ التي اتفق حولها جميع مفكري وفلاسفة العقل: مبدأ القول بسلطة العقل، واعتبار أن لا سلطان على العقل إلا العقل ذاته، ودفع البشر نحو التخلص من التبعية لغير العقل، ويقتضي هذا القول كله بأن يكون للعقل معايير تختلف بطبيعتها عن معايير ما هو غير العقل.

ولقد وجد هؤلاء أن العلاقة يجب أن تكون شديدة الصلـــة بيــن العقل والديمقراطية وبين العقل والتربية، والعقـــل وتغيـــير ســلوك الإنسان وحياة البشر، وأخيرا بين العقل والمجتمع المدني(١١٩).

لقد أعرض هؤلاء كنتيجة لبنية تفكيرهم العقلي، عن الغيبيـــات، والأفكار التقليدية، وطالبوا بأن تكون هذه الغيبيات خاصة الفرد ومــن شأنه، ودعوا إلى الأخذ بالمنهج العلمي بالاســتناد إلـــى الملاحظـــة، والتجربة والخبرة، رائدهم في ذلك "الروح النقدية".

لقد انتهى أمر الاعتماد على العقل بالفلاسفة العقليين منذ القـــرن السابع عشر، وحتى أيامنا هذه إلى الوقوف عند مبادئ عامة ثلاثـــة هـــي:

(١) العقل (٢) التسامح(١٢٠) **(٣) الإنسانية.**

جعل الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤- ١٨٠٤) العـــالم يــدور حول العقل، وقد عرف التنوير العقلي: خروج الإنسان من قصـــوره الذي اقترفه بحق عقله، أي في العجز عن استخدام العقل إلا بتوجيـــه من آخر، ويقع الذنب في هذا القصور على الإنسان نفسه عندمـــا لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل، بل إلى العـــزم والشـجاعة اللذين يحفزانه على استخدام العقل بغير توجيه من إنسان آخـــر (أو بتوجيه من ثقافة ونصوص).

لقد كان شعار هذا الفيلسوف: "لتكن لديك الشـــجاعة لاســتخدام عقلك"(١٢١).

وإذا كانت الديمقراطية مسألة سياسية، فلا فصل بيـــن السياســة والاقتصاد

ولا فصل كذلك بين هذين والحيـــاة الاجتماعيـــة، والنتيجـــة أن

الديمقراطية مسألة مجتمع ديمقراطي، إنها أسـلوب حيـاة وتفكـير وليست طريقة الانتخاب والتصويت.

العقل سلطة وجودية ومعرفية:

فطن الفيلسوف "أفلاطون" في القرن الخامس قبل الميـلاد إلـى مكانة (القوة العاقلة) وقيادة العربة في الأسطورة التي ذكرهـا فـي كتاب (الجمهورية) حيث نظر إلى الإنسان في الأسطورة علـى أنـه مكون من ثلاث قوى : القوة الجسدية (الشهوية) و(القوة الغضبيـة) و(القوة العاقلة) والعربة يجرها حصان والحوذي في قيادة هذه العربة هو: العقل. ويقتضي حيل ما رآه الفيلسوف أن يقود العقـل القـوى الإنسانية الأخرى.

العقل في الرأس وفى اللغات العالمية المشهورة يقال في الإنجليزيـة مثلا:

Hed of Department رئيس الدائرة، وهو عقل الإدارة؛ لأن فـي الرأس يكمن العقل (الدماغ) وفى الفرنسية نقول: الدمـاغ المحـرك للمجموعة Cerveu du Groupe وفى العربية نقول الرأس المدبر، وقديما قال الجاحظ: لا تذهب إلى ما تريك العين، بل اذهب إلى مـا يريك العقل .... الخ.

فالعقل هو: المدبر، والآمر، والقائد، والسلطة التي يجب أن تكون صاحبة الأمر والواقع أن السلوك الإنساني عبارة عن أوامر Orders من العقل –الدماغ، وقد ذهب "أفلاطون" في تأملاته الفلسـفية إلـى القول بأن الحاكم –أو صاحب السلطة يجب أن يكون فيلسـوفا –أي صاحب نشاط عقلي يعتمد الحكم على سلطة العقل، لا على الأهـواء والأمزجة والرغبات.

العصور الوسطى العربية الإسلامية، والمسيحية الأوروبية:

ساد إعمال العقل في النص الديني بناء على مطالب القرآن الكريم، وذلك طوال فترة الحضارة العربية الإسلامية، وكان الأمر كذلك في العصور الوسطى المسيحية وخاصة لدى آباء الكنيسة ورجال الدين المسيحي أو رجال اللاهوت.

ومنذ بداية عصر النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي.

عمل عصر النهضة على إعادة النظر في ارتباط العقل الإنساني بثقافة النص، واعتبره من مخلفات العصور الوسطى، ونتيجة لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية -لا نجد مبررا هنا للدخول في التفاصيل -فقد أعاد الغرب الاعتبار إلى الثقافة الوثنية -التراث اليوناني -الروماني -وأعيد بعث هذا التراث، ونتيجة لهذه العودة فقد تم تحييد كامل للنص الديني وثقافته، وشرع الغرب بالأخذ بثقافة العقل.

العصور الأوربية الحديثة:

باختصار شديد بدأ الغرب في القرنين السادس والسابع عشر في إثراء قارته، والعالم بنتائج اهتمامه بثقافة العقل، وتقدمه -العلمي، والفلسفي وقد شهد أسماء كثيرة سجلتها كتب تاريخ الفكر والفلسفة والعلم، حول إسهام علماء وفلاسفة ومفكرين في تحديث العالم الغربي(١٢٢)، هذا بالإضافة إلى أسماء أعلام آخرين كـ: "جن لوك" (١٦٣٢- ١٧٠٦)، واسبينوزا (١٦٣٢- ١٦٧٧) ولابينتز (١٦٤٦- ١٧١٦)، ونود أن نقف عند القرن الثامن عشر الأوروبي، وثورته

الكبرى في جعل العقل يربض على قمة الوجود والحياة، وما دعـــاه المؤرخون بعصر التنويـــر A ufklarung Les Lumieres - وظهور أسماء عديدة في هذا القرن جعلوا من العقل الكائن المطلـــق الذي يجب أن يحتكم إليه في الفكـــر والوجـــود (فولتـــير، ديـــدرو، وأصحاب الموسوعة الفرنسية المشهورة).

وأخيرا لدى فيلسوف العقل بلا منازع إيمانويل كانت ومشـــروعه النقدي للعقل الإنساني.

العقل سيد العالم –العقل والتاريخ

"هيجل" فيلسوف ألماني مشهور في تاريخ الفلسفة الأوربية فـــي القرن التاسع عشر، وهو يربض على قمة تاريخ الفلســـفة والمنطـــق الجدليين في العصور الأوربية الحديثة، شكل في فلســـفته، ومنطقـــه الخلفية العريضة للأيديولوجية الماركسية التي لعبت دورا عظيما فـــي تاريخ الأيديولوجيات الغربية، فكرا، وممارسة.

وهيجل بكلمة مختصرة جدا، هو خلاصة الفكر الفلسفي الجدلي، والمنطق الديالكتيكي، حيث يؤرخ المنطق بما قبل هيجل/أي المنطـــق الصوري وما بعد هيجل، والمنطق الديـــالكتيكي، أو المنطـــق التـــي تتصالح فيه المتضادات وتتعانق فيه المتناقضات بعضها بعضا حسب صيرورة يصبح فيها الإثبات نفيا، والنفي إثباتا في حركة ديالكتيكيـــة دائمة تعتبر نبض، وباطن الحياة والوجود والفكر.

يهمنا هذا الفيلسوف من حيث تركيزه الشديد على دور العقل فـــي التاريخ، وتطور العقل عن هذا التاريخ ثم ونظرته إلى النشاط العقلـــي مستقلا عن مختلف أنماط التفكير الأخرى، وبعبارة أخـــرى النشـــاط العقلي ينطوي في جوهره على كافة أنماط التفكـــير مـــن : تفكـــير أسطوري وديني، وعلمي، ولكنه يتجاوزها جميعا نحو تأكيد "العقـــل

المطلق الجدلي" وهذا العقل تجسد في نهايـــة التـــاريخ فـــي العقـــل الأوروبي الجرماني!

يعتبر بعض الباحثين ومؤرخي الفلسفة أن هذا الفيلســـوف مثـــل شؤما عظيما في تاريخ الفلسفة من حيث تركيزه على العقل الأوروبي في سموه وتعليه على مختلف أنماط التفكير العالمية الأخرى، ولذا فقد اعتبر رائد المركزية الأوروبية.

لقد ورث الغرب المعاصر هذه المركزية الأوروبيـــة الغربيـــة، وأصبحت هذه المركزية الستار الحديدي أمام حواره مع "الآخـــر" أو الحضارات الأخرى.

رأى "هيجل" الوجود عقلا ورأى العقل وجودا، ونظر إلى الواقـــع الذي أحاط به على أنه عقل يموج، لا وجود لغير العقل، في الواقـــع والتاريخ إن العقل مبثوث، ومحايث للتاريخ، والفعل الإنساني.

مال "هيجل" نتيجة تركيزه على مكانة العقل إلى تبرير الواقـــع، بعدم التمرد عليه أو نقده، ولم يكن "هيجل" فيلسوفا عقليا ناقدا للواقـع، وللتاريخ، بل لقد كان متصالحا مع الواقع، وباعثا لدور كبير للعقـــل في التاريخ.

لقد شكل العقل عند فيلسوفنا سلطة وجودية، ومعرفية، واعتـــبره نتاجا تراكميا للنشاط المعرفي الإنساني، وقد مر بمراحل كان الفكـــر الشرقي الأسيوى، بما يحمله من أسطورة هو أول مراحل تطـــوره، وقد انتهى هذا العقل متجاوزا لتاريخ الفكر العالمي، كلـــه، وليتجســـد أخيرا في العقل الجرماني- الأوروبي "نظر هيجل" أخيرا، إلى العقـلـ على أنه : "سيد العالم".

إذا كان العقل يمثل سلطة وجودية، ومعرفية، إذ لا سلطان عليـــه

إلا نفسه، إلا أننا ننظر من جهتنا إلى دوره الناقد لأنماط الفكر، وننظر إليه كذلك على أنه يدين الواقع، ويواجه المحاولات الرامية إلى تدميره.

المرحلة المعاصرة:الثورة المعلوماتية

(شدة الرغبة في المعرفة –دور العقل)

العقل أداة استبصار في الوجود، أداة معالجة المعلومات، وإذا قبلنا مبدأ التراكم المعرفي طوال القرون الماضية، وتضخم المجال التراكمي في العصر الحديث. وقبلنا أيضا مقالة أن العرب، والمسلمين قد ساهموا في تاريخ هذا التراكم المعرفي إلا أنهم في أيامنا هذه في دور: المتلقي، وإن دور المتلقي ليس سلبيا بالضرورة، بل له دور إيجابي يقوم على توظيف عقله في الاستفادة وتنشيط هذا العقل وتنشيط إرادة المعرفة، وتحصيل المعلومات وذلك من أجل التقدم، والتنمية، على صعيد حياة الفرد، والمجتمع.

إن حاجتنا إلى إعمال العقل في ظل الثورة المعلوماتية هي حاجة ملحة، أكثر من أي وقت مضى، ولكن لا تظهر هذه الحاجة إلا بفعل تجاوز أو إزالة الرواسب أو أنماط الفكر القديمة التي لا تجدي نفعا في توظيف العقل، ولا في التقدم المنشود. إن العقل وسيلة، والغاية هي التقدم، والوسيلة والغاية مترابطتان، والواقع لا تنقصنا المعلومات، والمعارف في ظل التطورات التكنولوجية المعاصرة، ولكن ما ينقصنا هي مهارة توظيف، واستخدام عقلنا الناقد، في ظل ما نتلقاه، وما نطلع عليه وما نراه، ونسمعه من معلومات.

القسم الخامس

استراتيجية عقلية مقترحة

ملاحق

- فشل النهضة العربية
(القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين)
محمد أركون.

- نحو مرجعية فكرية عربية عصرية .
د . عبد العزيز ربيع

- نحو تفكير عقلاني منفتح .
محمد أركون .

- ثورة العقل في الإسلام.
د . عاطف عراقي.

- مفهوم التقدم في الإسلام.
د. فهمي جدعان
د. يوسف قرضاوي

فشل النهضة العربية في

القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين

ظهرت في القرن التاسع عشر حركة عقلية وثقافية تدعى بحركة "النهضة" وحاولت إنعاش التراث الأمين الخاص بالمرحلة الكلاسيكية، حاولت بعثه من مرقده تحت اسم إحياء التراث أو التعرف من جديد على العصر الذهبي من عمر الحضارة العربية -الإسلامية. وقد بذل مثقفو النهضة جهوداً مشكورة بهذا الصدد. ولكن المشكلة هي أن النهضة جاءت في وقت كانت فيه القطيعتان المذكورتان آنفاً (انظر هامش الصفحة التالية) قد حفرتا هوة عميقة بين أوروبا الثورية والتنويرية المفعمة بالحيوية والحركة، وبين المجتمعات الإسلامية المنهكة بعد نوم طويل (نومة أهل الكهف). وبسبب من ضعف هذه المجتمعات وانقطاعها الطويل عن حركة الإبداع التاريخي، فإنها لم تعد قادرة على الاستفادة من الأدوات العقلية الموروثة عن العصر الكلاسيكي (أو العصر الذهبي) للإسلام. وبالطبع كانت قدرتها أقل على الاستفادة من العلم التاريخي الوضعي الذي دأب يقترحه المستشرقون في أوروبا بين عامي (١٨٥٠-١٩٤٠) ومن المعلوم أنهم قاموا بقراءة فيلولوجية لبعض نصوص التراث الكبرى وحققوها بطريقة علمية حديثة ونشروها لأول مرة في ليدن، أو أكسفورد، أو لندن أو باريس، أو برلين ...الخ. كانت المجتمعات العربية والإسلامية قد وصلت إلى حالة من الضعف والتردي بحيث إنها لم تعد قادرة حتى على التفاعل مع ما أبدعه تراثها الخاص قبل سبعمائة سنة أو حتى ألف سنة. فما بالك بقدرتها على فهم واستيعاب العلم الأوروبي الحديث الذي يتجاوز التراث الكلاسيكي الإسلامي كثيرا لأنه هضم عصر النهضة الأوروبية والتنوير في آن معا ؟!

لهذا السبب فشلت النهضة العربية أو الإسلامية على الرغم من كل الجهود الواعدة التي بذلتها ثلاثة أجيال من المفكرين والأدباء والمثقفين والفنانين في بلاد الشام ومصر خصوصا. ويكفي أن نذكر هنا أسماء الجبرتي والطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم وطه حسين والعقاد والمازني وجرجي زيدان واليازجي والبستاني وجبران خليل جبران ويعقوب صروف وفرح أنطون وشبلي شميل وسلامةموسى ومحمد كرد على ....إلخ، كل هذه الأجيال المؤسسة للنهضة ذهبت جهودها أدراج الرياح بسبب صعوبة النضال ضد الجمود الداخلي المزمن والهجمة الخارجية الشرسة المرافقة للاستعمار.

هكذا نجد أن تيار النهضة قد أخذ يتعب ويثير الرفض ضده بدءا من العشرينات من هذا القرن (تاريخ تشكيل جماعة "الإخوان المسلمين" في مصر من قبل حسن البنا يعود إلى ١٩٢٨، وقد اضطر طه حسين والعقاد، بطلا التحديث الفكري، إلى مجاراة هذا التيار الشعبي في الثلاثينات والأربعينات عندما راحا ينخرطان في كتاباتهما الإسلامية (...إن هذا الرفض المبكر للنهضة والتنوير كان سيؤذن بما سيصل لاحقا : أي بنشوب المعارك السياسية الأكثر راديكالية أثناء حروب التحرير الوطنية (١٩٤٥- ١٩٧٠)، ثم باندلاع حركات الجهاد الأصولية اليوم. في مثل هذه الظروف لا تعود الأولوية للتنوير الفكري، وإنما للنضال الإيديولوجي والتعبئة السياسية. وعندما يتكلم المدفع أو الرشاش يخرس صوت الفكر *.

---

(1)يقصد أركون بالقطيعتين : ١-القطيعة مع التراث العربى الإسلامي إبان الحضارة العربية الإسلامية، ٢-القطيعة مع الحداثة الأوربية منذ نشوئها في القرن السادس عشر.

*محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني -ترجمة هاشم صالح.دار الطليعة -بيروت ط١ ، ١٩٩٨ ،ص ١٩٦ ،١٩٧.

أمام الهجوم على العقل، ومحاولة تدميره، أو اعتقاله، أو لجمه، أو نفيه، في الثقافة العربية الإسلامية قديمها وحديثها، لا بد من المواجهة، ولا بد من الصدام مع قوى التدمير، تلك القوى التي تتلبس أقنعة تخفي ملامحها، والتي تظهر أمام العالمين العربي -والإسلامي بأنها تدافع عن الهوية الحضارية، والحفاظ على التراث، وعلى النص وثقافته، ولا تريد الذوبان في الآخر، أو تقع تحت تبعية مشبوهة، وتسلك أحيانا للدفاع عن أطروحتها هذه أسلوب الإرهاب في القول والكلمة، وأسلوب "الحوار" ، وأحيانا تمضي نحو الاستئصال، وهدر الدماء والاغتيالات العقلية والنفسية والجسدية، وتضرب الانطلاقات العقلية المتنورة وإزاء هذا الوضع الذي كان ولا يزال صارخا، مأساويا، لا بد من وضع استراتيجية عقلية منفتحة على التراث العقلي في تاريخ الإنسانية وحضارتها العقلية.

يستعين صاحب هذه السطور في هذا الاقتراح العقلي بأولئك المجتهدين الذين سلطوا الضوء قبله بأزمان طويلة (١٢٣)،على دور العقل في التقدم الإنساني.

لقد وضع بعض الدارسين تراجم لفلاسفة عقليين أوروبيين، منذ بداية القرن العشرين وخاصة في (مصر)، وقد بلغت الترجمات الأوج في الستينات من القرن الماضي وعلى يد الأكاديميين المصريين. (انظر ترجمات "كانت" و "اسبينوزا" ، و "لايبنتز" و "هيجل" وقبل هؤلاء أعمال الفيلسوف "ديكارت" من ترجمات "جميل صليب" و"عادل العوا" (في سوريا) وعثمان أمين في (مصر) .. الخ.

إن مشكلة هذه المحاولات الجادة والإيجابية أنها كانت غير منظمة، وعشوائية ولم تكن وراء هذه الترجمات مؤسسات رسمية تدفع إلى ترجمة الأعمال الكاملة، ومن ناحية أخرى، ظلت هذه الترجمات من شأن النخب الثقافية الفلسفية والأكاديمية ولم تصدر أعمال مبسطة في هذا الاتجاه تخاطب الشوارع العربية، ولم تعمم

الفائدة.

من المجتهدين العرب المعاصرين الذين وعوا أزمة الفكر العربى الإسلامي، ووضعوا إصبعهم على أزمة العقل الأستاذان : البروفسور محمد أركون، والأستاذ النبيه "هاشم صالح"، المتخصص في اجتهاداته بترجمة، وتوعية الجمهور القارئ بأعمال "اركون" ونود هنا الإشارة فقط إلى اجتهاد "هاشم صالح" في مجال تنوير العقل العربي ودعوته إلى الخروج من الكارثة الفكرية التي يعيشها الفكر العربى.

في ندوة (أصيلة) أعدت حول محور (الترجمة ودورها في بناء المستقبل العربى) والتي عقدت في (آب -أغسطس ١٩٩٢)(١٢٤)، اقترح "صالح" قائمة طويلة من المؤلفات باللغات الأجنبية والفرنسية خاصة داعيا إلى ترجمتها إلى العربية وتتناول القائمة أعمال كبار المفكرين الفلاسفة في ميداني الفلسفة، والعلوم الإنسانية.

لنقل بادئ ذي بدء أنه من الأفضل الإلمام بإحدى، بل، وأكثر من واحدة من اللغات الأجنبية للاطلاع على المؤلفات المقترحة بلغاتها الأصلية تجنبا لسوء فهم قد يقع، وتجنبا للانتظار الزمني لترجمة هذا المؤلف أو ذاك، وأخيرا لا بد من تحصيل القارئ الذكي كي يقف موقف القارئ الناقد الذي لا ينظر إلى أي نص على أنه مقدس، أو نهائي.

كذلك ندعو القارئ إلى الاطلاع على بحث الأستاذ "هاشم صالح"، وليس من المجدي أن نعيد نسخ هذا البحث، ونسخ القائمة التي اقترحها الباحث، بل يريد صاحب هذه الأوراق أن يسجل مقتطفا من القائمة التي قد تعطي فكرة معقولة عن عمل الباحث المذكور.

لقد وضع الأستاذ "صالح" في قائمته ترتيبا، نبدي حوله تحفظا، ونقترح إعادة ترتيب له، وذلك أن الباحث وضع في ترتيبه داعيا إلى

ترجمة مؤلفات من العلوم الإنسانية، ثم الفلسفة في الترتيب الثاني.

وتبرير إعادة ترتيبنا للقائمة هو أنه من الناحية التاريخية، قد سبق النشاط العقلي الفلسفي، النشاط العلمي في العلوم الإنسانية، أي قبل انشقاق العلوم الإنسانية كعلم النفس، وعلم الاجتماع والإنثربولوجيا في القرن التاسع عشر، كذلك فنحن نميل إلى الاطلاع على كتب تاريخ الفلسفة وأعمال الفلاسفة، وذلك لامتلاك "آلية نقدية فلسفية، قبل الشروع والسقوط في أفخاخ العلوم الإنسانية، والانحياز الكامل لها، وإهمال أنماط التفكير الأخرى، وخاصة أن الفلسفة بطبيعة نشاطها تمكن القارئ لها من استيعاب مختلف أنماط التفكير الإنساني وتنفتح عليها، وتحاورها.

يقول "هاشم صالح" في معرض اقتراحه لترجمة الآثار العقلية من التراث الغربي: "قبل تقديم الفلسفة الحديثة ينبغي أن يطلع القارئ العربى على تاريخ الفلسفة منذ "ديكارت" (حسب التسلسل الزمني) باعتبار أن ديكارت يمثل قطيعة مع الفلسفة المسكولاستيكية أي (فلسفة العصر الوسيط)(١٢٥)، كما ينبغي تقديم الفيلسوف "كانت" و"هيجل" و"ماركس" و"نيتشة" و"فرويد، وأدلر، ويونغ" ويقترح الأستاذ صالح تقديمهم من خلال كتاب ومشتغلين ومؤرخي الفلسفة في علم النفس في فرنسا (في بريطانيا، وأمريكا)(١٢٦)، ويفصل الأستاذ صالح اقتراحه قائلا: "ولذا فنحن نقترح كمحاولة أولى لسد النقص أو مواجهة الوضع أن تنهض حركة ترجمة واسعة تشبه إلى حد ما حركة الترجمة في مطالع عصور الحضارة العربية الإسلامية – العصر الكلاسيكي –عن اليونان، وهذه الحركة يمكن أن تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أي الشروع بالترجمة كما يلي:

الأول –الثورة اللاهوتية والدينية، La Reforme.
الثاني –الثورة الابستمولوجية أو العلمية أو الدقيقة.

الثالث –الفلسفة والعوم الإنسانية (١٢٧)

بالنسبة للقسم الأول: ترجمة أعمال لوثر "Luther " والكتابات حولـه مصنوعة بقلم المتخصصين اللاهوتيين.

وتوجد قائمة طويلة في الصفحات : ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩.

كذلك في فصل الترجمة إلى العربية للأعمال اللاهوتية، والتـي تساعد على إعادة نظر في النص وثقافته، يمكن الاطلاع علـى مـا يسمى بـ الأنثروبوجية الدينية وظاهرة المقدس، Le Sacre ودراسته انثروبولوجيا(١٢٨).

ثانيا –الثورة العلمية والمعرفية (الابستمولوجية)

يقول صالح: "هناك ثلاث لحظات أساسية في تاريخ العلم الحديث":

١- لحظة كوبر نيكوس، غاليليو،دكارت (القرنان السـادس عشـر والسابع عشر).
٢- لحظة نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧).
٣- لحظة إينشتاين، نيلزبور، هايزنبرغ في مجال الفيزياء الدقيقـة، وداروين في مجال العلوم الطبيعية...(١٢٩).

بالإضافة لجهود الباحثين العلميين حـول العلمـاء المذكوريـن، ونظرياتهم العلمية وتفسيراتها، وكذلك يقدم صالح مقترحاته في مجال فلسفة العلوم (١٣٠)، والخيال العلمي.

ثالثا –وفي مجال الفلسفة، حبذا لو يتم الاطلاع على قائمة الكتب فـي تاريخ الفلسفة وأعمال المشتغلين فيها والدراسات الفلسفية، ولا ترجى

فائدة من إعادة نسخ هذه القوائم، و(انظر الصفحـات: ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ حول عقلانية الغرب وحداثته.

رابعا -أما في مجال العلوم الإنسانية فكذا الأمر. نقول حبذا لو يتـم الرجوع إلى القوائم التي اقترحها الأستاذ "صالح" في بحثه المذكـور سـابقا، صفحـات :٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

نحو مرجعية فكرية عربية عصرية

في مقال مهم نشر في صحيفة الخليج للدكتور عبد العزيز ربيـــع (وهو مفكر عراقي يقيم في الولايات المتحـــدة الأمريكيـــة)، يقـــترح المفكر مرجعية متنورة للعقل العربي على أبـــواب الألفيـــة الثالثـــة، وينطلق في اقتراحه من واقع ثورة المعلومات والتفجـــر المعرفـــي، والتقدم التكنولوجي، ويحاول أن يأخذ بعين الاعتبار ارتبـــاط الأمـــة العربية ((بجذورها القديمة)) كذلك ينظر إلى ((الأزمة التي يعيشـــها العرب نتيجة تخلف أطر الفكـــر والعمـــل السياســـية والاقتصاديـــة والاجتماعية، والاستمرار في التمسك بقيم ومواقف وعادات وتقـــاليد بالية محبطة للهمم وقيام السلطة في المجتمع باضطهاد حرية الفكـــر، وغياب الرؤية العلمية..)) ويدعو الدكتور ربيع إلى ((الاستفادة مـــن تجارب الغير من الأمم)) في مجالات التقدم، وأخيرا يقترح عنـــاصر المرجعية العصرية في مجموعة من النقاط، ونسجل باختصار مايلي:

١-الدين الإسلامي كإطار اجتماعي لتحديد أسس نظام القيم في الحياة العربية، وتشكيل قوة ضغط أخلاقية لإقامـــة العـــدل بيـــن النـــاس، ومساعدة الفقراء، والمحتاجين وحمايـــة الضعفـــاء والمجتمـــع مـــن المسلكيات المضرة، وذلك دون التدخـــل فـــي الحريـــة الفكريـــة أو الاجتماعية أو الحياة السياسية)).

٢-القومية العربية كإطار للعمل السياســـي الوحـــدوي بيـــن الـــدول العربية، وكإطار انتماء يربط الأفراد والجماعات، بغض النظر عـــن الديانات، والفوارق الطبقية، بعضهم إلى بعض ويقـــوم بـــالاعتراف بالحقيقة القطرية ودولتها الوطنية...مع التركيز على البعد الاقتصادي أداة وهدفا..

٣-الحرية والديمقراطية كقيمتين اجتماعيتين ونظام حكـــم سياســـي

لتعريف وتطبيق حق الفرد والمجتمع في العيش بحرية وأمان....واللجوء إلى حل المشكلات من خلال التسامح، والحوار العقلاني...

٤-التجمع الاقتصادي كإطار لإقامة سوق عربية مشتركة وتحقيق تكامل الاقتصاديات العربية.

٥-العمل المؤسسي كإطار لتحديث الدولة ومأسسة السلطة وبناء مجتمع عصري قادر على تنظيم مختلف فئات الشعب في مؤسسات وجمعيات وروابط ذات اهتمامات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية.
٦-البحث العلمي والتفاعل الثقافي مع الغير من الثقافات كإطار فكري يقوم بتعريف بمشاكل الواقع وتحديد إمكاناته من ناحية، وتحديد الأهداف المستقبلية ومواجهة التحديات الخارجية والمستقبلية من ناحية ثانية..

عن صحيفة الخليج ١٩مارس/آذار٢٠٠٠ م

نحو تفكير عقلاني منفتح:

يقول البروفسور <u>**محمد اركون :**</u>

((تشكل العقلانية موقفا متعمدا للعقل، وهو يؤدي إلى بلورة معرفة نقدية، وتفترض الحياد تجاه العقائد، والأديان والأيديولوجيات والنظريات التي تمس الإنسان، ولا يتحيز لواحد ضد الآخر بشكل مسبق، كذلك تطبق العقلانية العلاقة النقدية بشكل غير مشروط على كل العمليات أو المجريات التي ينفذها العقل، وهو منهمك في مواجهة الواقع.

وأخيرا،إن العقلانية بالمعنى الواسع، موقف حر منفتح الروح، أمام مشكلة المعرفة والواقع))

عن/محمد اركون، الإسلام،أوروبا،الغرب ص١٠٢،١٠٣

من العقل إلى التجديد:

في عام (١٩٧٤) صدرت الطبعة الأولى من كتـــاب **<u>الدكتــور</u>** **<u>محمد عاطف العراقي:</u>**

١- (ثورة العقل في الفلسفة -العربية والإسلامية) وهو عنوان مثير، وملفت للنظر، ومدعاة للقراءة، والتأمل -إن المؤلف يبـــدأ ثورتـــه بالحديث عن "المنهج العقلي التجديدي" (ص١٣) الطبعـــة الثالثـــة. ويقول: "منهجي الذي أؤمن به وأدافع عنه في مجال الفلسفة العربيـــة هو المنهج العقلي، وأكاد أقطع بأننا لو سرنا في طريق التقليد مئـــات السنوات وانحرفنا عن نهر العقل، فلن نستطيع التقدم خطوة واحدة في سبيل إرساء دعائم فلسفتنا العربية وكشف ما فيها من مواطن القـــوة والضعف، بحيث نستطيع وصل ما انقطع، أي حتى يكـــون تـــاريخ الفلسفة العربية تاريخا ممتدا، وليس تاريخا انقطع بموت الفيلســـوف العربى ابن رشد"

ص ١٣م . مذكور.

ويقول العراقي أيضا في عبـــارة لا تخلـــو مـــن روح دراميـــة، وصحيحة ما يلي: "إننا لو حاولنا إسكات صوت العقل، فمعنى هذا أننا نقول للفلسفة وداعا".

المصدر المذكور والصفحة ذاتها

٢-من التجديد إلى الثورة:(ثورة من الداخل وليست ثورة من الخارج)
يقول العراقي: "أنا مؤمن بأن الثورة في الفكر الفلسفي العربـــي لا بد أن تكون ثورة من الداخل معتقد بأن الثورة من الخارج والتي تقوم على أساس الهجوم والرفض، تستند إلى مبررات لا نجد أكثرها إن لم يكن كلها مبررات علمية "

م.مذكور.ص١٨

ملاحظة: ويستشهد العراقي في هامش له ص١٦ بما قاله الدكتور "زكي نجيب محمود" حول افتقار فكرنا الحديث إلى التفكير العقلي حيث يجنح هذا الفكر إلى العاطفة في شتى ألوانها "

لا شك أن الدكتور العراقي يدعو إلى "الثورة العقلانية" من داخل الفكر العربى ذاته. (ص ٢٠)

يرى الدكتور العراقي أن مصادر المعرفة عند الفلاسفة والمفكرين المسلمين تنقسم إلى :

١) مصادر المعرفة اليقينية، وتأتي عن طريق العقل(أوطريق الحق)
٢) مصادر المعرفة غير اليقينية (طريق الظاهر) ص ٧- ٨ .

ثم يعكف على نقد موقف "الفارابي" من مسألة الله، وصدور الموجودات

وخير ما نراه في هيكل كتاب الدكتور العراقي نقد التصوف الإسلامي والموقف الإشراقي الذي يعد تعبيرا عن "ثورة العقل".

والنظر إلى أن التصوف هو "طريق وجداني قلبي، لا عقلي ولا برهاني" م.س.ص١٢٣

وأخيرا نقد "ابن سينا" في دلالاته الصوفية والتي يعبر عن اتجاه لا عقلي م.س.ص١٦٦

وهذه النقطة الأخيرة سيقف عندها طويلا الدكتور "محمد عابد الجابري" في كتابه بنية العقل العربى عندما يتحدث عن العقل المشرقي مقابل العقل المغربي، وكون الأول مشبعا بالصوفية والإشراقية والمعرفة اللدنية، وكون الثاني مشبعا بالعقلانية والمعرفة

العقلية والمتمثلة في شخص ابن رشد)،
(لدينا تحفظ كبير إزاءه، ذكرنا ذلك في مواضع سابقة. وانظر مقالاتنا في صحيفة الخليج،١٩٩٩/٨/٣٢سر الهجوم على ناقد العقل العربى).

-كذلك إن القول بأن "ابن رشد" يقول بنظرية(قدم العالم) وهو بذلك يعارض العقيدة ويقول بأن أصل العالم مادة، وهو ما كان يراه الماركسيون العرب في تحليلهم لبنية التفكير الفلسفي في الإسلام، وهو قول يجئ عرضا في شروح ابن رشد على أرسطو ، ولم يكن واردا أن يذاع هذا الرأي الرشدي في مناخ العصور الوسطى الإسلامية أو في عهد ابن رشد في المغرب أم في الأندلس لأسباب دينية.
لقد ظل فلاسفة الإسلام العقليين الماديين يستظلون بمظلة العقيدة الإسلامية ولم يتجاوزوا ثقافة النص إلا قليلا.

مفهوم التقدم في الإسلام والفكر الإسلامي

منذ عصر النهضة الأوربية، وإحياء التراث الوثني، والدعوة إلى استقلال العقل عن النقل، أو الفصل بين العقل والدين، وتحييد الدين وجعله مسألة فردية، وشخصية، ارتبط منذ ذلك الحين تقدم الإنسان على الأرض بقوة العقل، والمادة. وبعبارة ثانية ارتبط مفهوم النهضة، والتقدم، والحداثة بمفهوم العقل المستقل الحر والمنفصل عن الاعتقاد والتفكير الديني .

أما بالنسبة إلى الإسلام، فإن مفهوم التقدم كان، ولا يزال مرتبطا بالعقل النقلي، أو بالعقل الديني -أي أن التقدم على الأرض مرتبط بالالتزام نحو التقدم ومسيرته نحو اليوم الآخر، أو يوم القيامة، والحساب، وهو مفهوم غيبي، وكذلك يشكل بالنسبة إلى الإسلام والفكر الديني نهاية أو غاية التقدم، فعند قيام الساعة يتوقف العقل

البشري الحياتي ليبدأ الفعل الإلهي في يومه الأخير.

والمفكرون المسلمون عملوا دوماً على التوفيق بين التقدم البشري المحدود بيوم القيامة بينما قامت الثقافة الأوروبية منذ عصر النهضة وحتى يومنا هذا على الإيمان بالتقدم اللا متناهي للعقل الإنساني، ورأت أن لا حدود لتقدم العقل وأن الإيمان بحدود عالم الغيب وهو مسألة إعتقادية شخصية، ولا علاقة لها بعمل العقل المستقل على الأرض وعلى العقل أن يحقق (الفردوس) على الأرض، دون أن ينتظر الفردوس الإلهي.

من وجهة النظر الربط بين العقل الديني، ومفهوم التقدم المحدود بعالم الغيب وضع الدكتور "**فهمي جدعان**" كتابه القيم (أسس التقدم عند مفكري الإسلام) ومنه نجتزئ فقرتين تعبران عن وجهة نظر **انطلاق الدكتور " جدعان "** .

فقرة (١)

مفهوم التقدم لدى المفكرين العرب المحدثين:(المصطلح)

((إن مصطلح "التقدم" وهو نقل عربي لكلمة Progres الفرنسية وقريناتها الإنجليزية والألمانية، ليس هو المصطلح الأكثر استخداماً عندهم إذ ثمة مصطلحات أخرى مكافئة لها تمام مثل مصطلح: "الترّقي" الذي نجده أوسع انتشاراً حتى فترة ما بين الحربين الكونيتين في القرن العشرين، ومصطلح "التمدن" الذي يشير في أغلب الأحيان إلى ما يفهم من التقدم، في بعض الأحيان وهو مجرد من قيمته الغائبة نحو الأفضل، وحين ينطوي على معنى "العقل" الحركي لا الانفعال السكوني أو الوضع الثابت.

ومع أن مصطلح "التقدم" حديث، إلا أن بعض المفكرين العرب

المحدثين أنفسهم "كالزهراوي" مثلا قد استخدموا كلمات "التحسين" و"الفوز" و"الصلاح" و"الفلاح"، وهي كلمات عربية أصيلة استخدمت بعض مشتقاتها في القرآن نفسه بالمعنى الذي تستخدم به كلمتا: "الترقي" و"التقدم" المحدثتان.

لكن من الحق أن يقال أن مفهوم "التقدم" عند مفكري الإسلام المحدثين لم يؤخذ إلا لماما، بالمعنى الذي نجده لدى فلاسفة التقدم التنويريين في أوروبا فهم قد جردوه في أغلب الأحيان من جل عناصره "التنويرية"))

د. فهمي جدعان (أسس التقدم عند مفكري الإسلام)
ط٣، دار الشروق للنشر والتوزيع عمان،الأردن.ص٢٠، ٢١

((إن فكرة التقدم تعبر في جوهرها عن مفهوم اجتماعي – تاريخي، بمعنى أن الفكرة ومضمونها الدال عليها هي حصيلة عملية اجتماعية (صناعية إنسانية) ذات صلة وثيقة بالتطور الاجتماعي – الثقافي للإنسانية الذي لا تنفك عنه هذه الفكرة)) م.س.ص١٩

فقرة (٢) :

ميتافيزيقا التقدم:

((مثل الإسلام منذ البداية لدى المسلمين أنفسهم صورة من صور الحياة الدينية والدنيوية على حد سواء، وقد وضع حدا نهائيا لحركة الوحي العام نفسه فرسول الإسلام هو خاتم الرسل، والوحي المحمدي هو آخر وحي ينزل على بشر فهو لهذا يعبر عن الحالة النهائية للمعرفة الدينية والفعل الأخلاقي اللذين ينبغي على الإنسان أن يأخذ بهما استجابة للنداء الإلهي.

فالدين الإسلامي إذن هو الهدف، أو الغاية التي اتجـهت نحوها الإنسانية بتوجيه من الله ووحي منه، وهو هدف وغاية من حيث إنـه تقرير نهائي لا رجعة عنه لمذهب التوحيد الخالص، والتنزيه المطلق، وهو هدف وغاية من حيث أنه تقرير نهائي وحاسم لأسمى ما علـى الإنسانية أن تلتزم به من أخلاق، ومعاملات، وفعل على الأرض))
م.س.ص٢٥

الإسلام بمعاييره وقيمه وأسسه العقائدية (الإيمان باليوم الآخـر، هو نهاية التقدم والفعل الإنساني السائر إلـى الأمـام، وهـو نهايـة التاريخ) إذ أن حركة السير هذه يجب أن تتوقف عند القرار الإلـهي ببعث، وقيام الساعة، ويوم النشور ((يوم تذهل كل مرضعـة عمـا أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هـم بسكارى. ولكـن عـذاب الله شـديد)) (القـرآن الكريـم، سـورة الحج،آية٢)(١٣١).

عندها يصبح التقدم الإنساني، ورغد العيش، ورغبـة الإنسـان بتحقيق الفردوس الأرضي .. كل ذلك، يصبح هباء منثورا.

إن الله في الإسلام يزلزل كل فعل إنساني بكلمة أو فعـل منـه، ويطيح بالجهد الإنساني ويجعله أسفل سافلين، يوقف حركة الإنسـان نحو التقدم، لأن هذا الفعل التقدمي يمكن في لحظة غضب إلـهي أن يكون نفيا، منفيا ويجعله قبض الريح.

معيار التقدم في الإسلام

الشيخ يوسف القرضاوي

يذكر الدكتور القرضاوي مقاصد ثلاثة من خلق الله للإنسان:

الهدف الأول: الإسلام يجعل لحياة البشر على الأرض أهدافا أساسية من أبرزها: عبادة الله تعالى، وفى هذا يقول الله تعالى في كتابه: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)).

الهدف الثاني: خلافة الإنسان في الأرض، وهذا ما خص الله به آدم وذريته دون الخلائق جميعا، قال تعالى: ((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون)).

ومعنى خلافة الإنسان لله في الأرض: أن ينفذ فيها أمر الله تعالى، ويقيم فيها الحق والعدل كما قال تعالى لعبده وبنيه داود ((يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى، فيضلك عن سبيل الله)).

الهدف الثالث: كما بين القرآن: هو عمارة الأرض، وهذا ما نص عليه القرآن في قوله تعالى: ((هو أنشأكم في الأرض، واستعمركم فيها))، ومعنى استعمركم "أي طلب عمارتكم لها".

ويختم الشيخ قوله بأن هذه المقاصد الثلاثة مترابطة، متكاملة، متلازمة، فعبادة الله تعالى جزء من خلافته، والخلافة والعمارة ضرب من العبادة لله تعالى، والمؤمن الحق هو الذي يجمعها كلها في

تكامل واتساق، وبقدر ما يحقق الإنسان هذه المقاصد أو الأهداف يكون تقدمه حقا وبقدر إخفاقه فيها كلها أو بعضها يكون تخلفه.

إن الشيخ القراضاوي لا ينسى عقد الصلة الكبرى بين هذه المعايير، والاعتقاد العميق في باطن المؤمن والقائم على الإيمان بأن "الدنيا مزرعة الآخرة وأن هذه الحياة -وإن كانت قصيرة العمر بالنسبة إلى الحياة الآخرة -لها أهميتها، لأن فيها التكليف والابتلاء والعمل، فاليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل".

عن/ د. يوسف القرضاوي، معيار التقدم في الإسلام
صحيفة الخليج (ملحق الصائم) ١٩٩٩/١٢/٢٦

الحداثة الهشة:

إن واقعنا العربى مضلل، فالزائر لمدننا العربية والناظر إليها من أعلى عليين يرى معالم الحداثة، والتقدم الهائل لمختلف أشكال البنى التحتية والذي يحدق في بعض مسالك الناس أو بعضهم في المحافل، واللقاءات العامة يظن أن عقلا حضاريا يسود المجتمعات العربية، ولكن سرعان ما يدرك هذا الناظر إلى أن ما بنى من مدن، وأشكالها الظاهرة، هو أبنية من قبيل "مدن الملح" والقائمة على أراض رخوة، أو رملية أو متحركة، وبنظرة متعمقة لحياة هذه المجتمعات يرى أن حداثتها ظاهرة، لا بل، إنها آيلة إلى السقوط، فلقد كتب الأستاذ "خيرى منصور" تحت عنوان (انتحار الحداثة).

-١-

((أظن أن الوقت مناسب الآن للقيام بجردة حسابية، لكنها بدلا من التعامل مع الأرقام، والإحصاءات نتعامل مع المفاهيم.

فالحداثة التي جرى التبشير بها بشكل متحمس، وأحيانا "طفولي"، ما إن أوشكت على النتوء قليلا من التراب حتى داستها أساطيل ودبابات، وأحيانا عوامل الطبيعة ذاتها تلك التي تنتقل عدوى التعرية لديها من الجغرافيا إلى التاريخ فتقضم سلاسل جبال، وتملأ حفرا وقيعان، لكأن قدر العربى منذ بدأ يفكر بالإحياء في القرن التاسع عشر هو أن يبنى عتبات لا تفضي إلى بيوت، وأن ينصب جدران ما إن يوشك على استكمال سقوفها حتى تنهار على رأسه.

إن محاولات القرن التاسع عشر رغم انتقاديتها، ووقوع بعضها في التوفيق الأقرب إلى التلفيق -انتهت في معركة عسكرية أودت بمن جسد روح التحديث للدولة والجيش وسرعان ما أصبحت دولة محمد على باشا أسلابا لمن جاؤوها من كل الجهات، إضافة إلى ما تفجر داخلها من ألغام اجتماعية وسياسية، لأنه شأن معظم القادة والعسكريين راهن على كبار الضباط، وعقد بوليصة تأمين لولائهم من خلال الامتيازات!

((...هكذا في نهاية القرن العشرين حداثات عدة دفعة واحدة ولنتوقف عند نماذج منها:

أولا- حداثة المزاج الاجتماعي، الذي كان متوقعا منه أن يقطع مراحل في التمدين، ومغادرة النسيج شبه الرعوي، ولكن ما حدث هو أن آخر مبتكرات التكنولوجيا تعايشت مع الخرافة، وتم تزاوج قسري بين الكمبيوتر وعادات ذهنية بدائية تستغرقها النميمة والنكاية، وحروب صغرى لا تزيد كثيرا على البسوس، وداحس والغبراء.

ثانيا -على صعيد الثقافة العربية، كانت الستينات قد بدأت مفاهيم حداثوية في الآداب والفنون، ومجمل الحساسية الشعبية، أعقبها على الفور ارتداد نحو الكلاسيكيات على اختلاف حقولها، فالنظم الثورية مثلا، والتي تنزع إلى التحديث العسكري، ومجاراة العصر احتضنت

الشعر العمودي، كرسته، وهمشت الحداثة سواء كانت متعلقة بالشعر أو التشكيل أو الموسيقى، ونادرا ما يحدث مثل هذا التخارج والتضاد بين المقدمات والنتائج، ثوريون في الصباح واتباعيون في الظهيرة، وقياصرة في الليل.

ثالثا --ابتكر العرب في العقود الأخيرة من القرن العشرين أصنافا من الديمقراطيات يتعذر التئامها في أي إطار، وصاحب عمليات القص، والتفصيل، هذه تسويفات محلية، تلوى أعناق التجارب الديمقراطية منذ أثينا حتى واشنطن، وتعيد إنتاج المصطلحات على هواها وانتهى الأمر بنا إلى الوقوف في منتصف الطريق بين أوتوقراطية، وثيوقراطية أيضا وديمقراطية عصية المنال ...

إن ما يحدث الآن وفى عز الظهيرة العربية هو انتحار الحداثة، الذي لا يفرق كثيرا عن "نحرها" ما دام المجتمع برمته هو الفاعل))
عن زاوية أفق آخر، خيري منصور. الخليج ٢٠٠٠/٦/١٧

وكذلك انظر الكاتب نفسه حول الحداثة، ونفاق الواقع تحت عنوان (الصيانة والحداثة)، الخليج ٢٠٠٠/٧/٤.

خاتمة ومطلب ثوري

في ندوة مهمة عقدت في الكويت جمعت نخبة من الدارسين والباحثين والمفكرين العرب حول محور: (الفكر العربى المعاصر، تقييم واستشراف)

وقد لمس الدكتور "محمود أمين العالم" في بحث قدمه بعنوان: الفكر العربى بين النظرية والتطبيق، ما عملت هذه الأوراق على تقديمه، بتعبير مختلف.

لقد وضع "العالم" إصبعه على القاسم المشترك بين الأنظمة الفكرية العربية المعاصرة ويقول: إن هذه الأنظمة تتسم بمشترك فكري واحد، أو بمنظومة فكرية واحدة، وإن اختلفت نسب عناصرها الداخلية، وتكاد هذه المنظومة الفكرية المشتركة تتألف من:

١) الفكر الديني المظهري والطقوسي.
٢) الفكر القومي الدعائي.
٣) الفكر الوضعي البراغماتي التجزئي من حيث الرؤية المعرفية.
٤) الفكر الليبرالي التابع من حيث البنية الاقتصادية.
٥) الفكر القبلي والطائفي من حيث البنية الاجتماعية إلى جانب سيادة الفكر التسلطي المركزة.

(مجلة عالم الفكر،الكويت العددان: الثالث والرابع، يناير/مارس، إبريل/يونيو ١٩٩٨م ص٣٦٦

١- يستشف من استخلاص الدكتور العالم لمنظومة التفكير العربي أن هذه الأخيرة واحدة، وان اختلفت نسب عناصرها، وعندما تسود منظومة فكرية واحدة لدى أمة من الأمم والنتائج أن هيمنة هذه "المنظومة الواحدة" تجهض محاولات الإبداع، والجدة التي تريد أن تظهر أمام هذه الواحدية في التفكير، وبالتالي يوصف تفكير الأمة التي يهيمن عليها "نمط واحد" بأنه تفكير غير خصب، ولا يوصف بالثراء المعرفي.

ولقد أكد "العالم" رؤيته للقاسم المشترك والواحد للفكر العربي، ما قاله في جزئيات تقسيمه وتفريعاته لنمط هذا الفكر بقوله: أن الفكر الديني والمظهري والطقوس "يأت في مقدمة العناصر الداخلية لهذا الفكر"
إن خصوبة التفكير الديني عموما تتجلى في الاستنطاق الدائم للنص الديني والتأويل المستمر لهذا النص، فثقافة التفكير الديني ثقافة فقهية في جوهرها، تقوم على الدوران حول النص، والمحاولة الدائمة

لتكييف وملاءمة النص، وشروحاته، مع الواقع المستجد، وتطابقه مع المصالح المشتركة للمجتمع، مع عدم الخروج عن "روح النص".

٢-ورغم أن "العالم" يضع الفكر القومي الدعائي من بين عناصر التفكير العربى إلا أنه يشير صراحة إلى أنه ليس (فكرا) بالمعنى الدقيق، وليس نمطا عقليا بتعبير صاحب هذه الصفحات أي أن بنية التفكير القومي العربي كانت ولا تزال بنية شعورية، ووجدانية غير مبنية على أسس عقلية وثوابت عقلية.

٣-الفكر العربي لا يخلو من براغماتية كما أشارت الصفحات السابقة وخاصة التي أسست لهذه التقنيات تلك العقلية القائمة على النشاط العقلي المستقل عن الاعتقاد والتفسيرات الغيبية للأمور، أما قول العالم بأن الفكر العربي يوصف بالوضعية، فهو وصف لا يقين فيه، وغير صحيح، إذا نظرنا إلى مصطلح " الوضعية " بالعلمية والموضوعية.

٤-لا يوصف التفكير العرب الاقتصادي بالليبرالية العقلانية بقدر ما هو مبني على ليبرالية تابعة : متوحشة، وطفيلية، بدائية، استهلاكية.

٥-لا خلاف مع الدكتور العالم أن الفكر القبلي، والطائفي، والتسلطي يقبع في أعماق تفكيرنا.

أخيرا، أدرك كثير من المثقفين، والباحثين والدارسين والأكاديميين العرب حالة التفكير العربي، وقاموا بجدارة بتشخيص هذه الحالة وقاموا كذلك بتحليل بنيات هذا الفكر.وقدموا اقتراحات جمة للمعالجة النظرية.

ولكن لم يعد التشخيص كافيا، ولم تعد النظرية مجدية ولم يعد التحليل والوقوف عنده مقبولا، لذلك فإن مطالب أصحاب هذه الأوراق تتجلى بكامل الوضوح بـ : الثورة والتغيير : الثورة على أنماط التفكير العربية المعاصرة، وتغيير طرائق هذا التفكير ولم يعد

الصبر ممكنا.

الطريق طويل، فطوبى لأولئك الذين يهتدون إلى معالم الطريق، ويصلون إلى هياكل النور.

سيكولوجية الجماهير

يقول الكاتب "د. حسن مدن" في زاوية له بمناسبة بكاء الجموع بشدة في وداع الرئيس السوري حافظ الأسد ما يلي:

((مشهد الجموع الباكية في شوارع دمشق في وداع الرئيس حافظ الأسد وقبله الجموع الباكية في شوارع عمان في وداع الملك حسين، والمشاهد المشابهة في بلدان عربية أخرى، وبلدان شرقية أيضا غير عربية، تدعونا للتأمل في مفهوم سايكولوجيا الجماهير، أي تلك الحال من الانفعالات الفورية والحقيقية إزاء الأحداث المختلفة، خاصة إذا كانت هذه الأحداث ذات طبيعة درامية كوفاة زعيم يحكم بلدا لفترة طويلة جدا، كما هو حال الرئيس الأسد، وقبله الملك حسين، حين تنشأ أجيال جديدة لم تعرف رئيسا آخر ...

إن هذه الانفعالات، وخاصة في جانب أساسي منها إنما تتصل بالخوف من المستقبل ولا قلق على الوطن من المخاطر، لاسيما في حالة بلدان تمر بظروف استثنائية كتلك التي تمر بها سوريا في الوقت الحاضر ...

إن الجماهير تغلب العاطفة، والانفعال الفوري الآني، لذا لا يبدو غريبا إن نفس الجماهير التي قد تكون متبرمة من سياسات معينة لزعيمها الراحل، أيا كان هذا الزعيم، هي نفسها التي تبكيه عند

رحيله..
إن هذا النزوع السيكولوجي للتعلق بشخص الزعيم هو في الغالب ظاهرة شرقية

عن "شيء ما، صحيفة الخليج ٢٠٠٠/٦/١٤"

تعليق:
إن تربية الشعب تربية عقلية ناقدة تخترق البنية العاطفية والانفعالية للجماهير قمينة بالنظر إلى "الزعيم" نظرة واقعية، إلى عمله في حياته، وإلى واقعة مماته.

ما الذي يحرك الجماهير؟

مقدمة:
عرفت الثقافة العربية على المستوى اللغوي (اللفظي) كلمات "مترادفة" تدل على كلمة جماهير الحالية من قبيل: العامة، الدهماء، سواد الناس، الرعية، الرعاع، الغوغاء، السوقة، ولقد وردت إلى ثقافتنا الأجنبية كلمات : الجماهير، والشعب، ورجل الشارع.

لا تخلو المترادفات العربية المذكورة من خلفيات قيمية، أخلاقية مشحونةبازدراء، ومشحونة كذلك بالتقييم الفكري الصادر بدوره عن تصنيفات الثقافة العربية الطبقية التي ظهرت إبان الحضارة العربية – الإسلامية من قبيل طبقات الشعراء، وطبقات المفسرين، وطبقات الحنابلة، وطبقات الأمم، وكذلك طبقة العامة، والخاصة، وخاصة الخاصة حيث تقابل كلمات الطبقات الأخيرة في لغة عصرنا : طبقة النخب الثقافية، والسياسية والجماهير، والاتباع، والأنصار، والأعوان ... الخ.

ورغم أن كلمة الجماهير بمضمونها المعاصر في الثقافة الغربية،

والتي يقابلها لفظ Mass ماس، لا يوجد مقابلها من حيث المضمـــون في ثقافتنا، ذلك أن "الجماهير" والتي نستخدمها إجرائيـــاً فـــي هـــذه السطور –في المنطقة العربية مفروزة، وموزعـــة بيـــن أكثريـــات تجاورها أقليات، ومن جماعات وطوائف، وملل، ونحـــل وعشـــائر، وقبائل، وتجمعات دينية مختلفة في الإيمان، والاعتقـــاد، والشـــعائر، وحيث تمركزت هذه الجماعات في الوطن العربـــى فـــي مناطقـــها الجغرافية، وتنتمي فكرياً ووجدانياً إلى هذه البقع نظراً لتجمع نظرائها في البقعة نفسها، فإن العالم العربى في نهاية الأمر عبارة (موزاييـك، وفسيفساء) تتجاور فيه جماعات تتكون عقلية كل جماعة منها مـــن مكونات –لا عقلية تقبع في قاع تفكيرها (مـــن تفكـــير اســـطوري، وديني يختلط فيهما اعتقادات تعود إلى عصر الفراعنة، والآشوريين، والفينيقيين، ومكونات عشائرية، قبلية...الخ)، إذن فاستخدامنا كلمـــة الجماهير في هذا السياق غير دقيق ولعله من المفيد للباحثين القيـــام بدراسات انثربولوجية، ودراسات في الجذور التاريخية، والاجتماعيـة –والسياسية والثقافية لظهور كل لفظ من الألفاظ الدالة على العامـــة، والرعاع، والغوغاء، وكذلك من المفيد أيضاً القيام بدراســـة لإيجـــاد الجذوع المشتركة بين الجماعات، والتجمعات، والطوائف والعشـــائر، والملل، والنحل، بغية الوقوف على أرضية معقولة للتعايش في وطننا العربى.

نظرة علمية لتحرك الجماهير:

لا تموج الجماهير بالحركة في الفراغ، ولا تهاجم أو تحـــرق، أو تدمر أو تضرب أو تحطم، وتكسر، وتقتل ، وتسحق، وتبكي، لأسباب تافهة، أو واهية، بل إن النظرة المتأملة، والفاحصة لتحرك الجمـــاهير ترشدنا إلى الاعتقاد بوجود أسباب تتراكم (أو مشكلات تتكاثر) داخـل وعى، ولاوعي الجماهير تجعلها تتحرك في لحظة ما عندما يربـــض إحساس واحد مشترك في نفوس الجماهير، تنتظر داهيـــة أو بعـــض الدهاة لتدفع الجماهير لتحرق الأخضر، واليابس إن صح التعبير.

ويمكن حصر الأسباب فيما يلي:

١. الأسباب الاقتصادية، أو الضغوط الاقتصادية المعيشية من قبيل :

الافتقار إلى لقمة العيش (مثال: ثورات الرغيف، ومطالب الجماهير لرفع مستوى المعيشة، ورفع الأجور، وتوفير أسباب الصحة، والضمان الاجتماعي، وتوفير السكن .. الخ)

٢. الأسباب السياسية :

عنف الدولة، والسلطة السياسية، والقهر السياسي، (الثورات ضد الاستعمار، قديما، والثورات ضد الاستعمار الاستيطاني في فلسطين والثورات ضد الطغيان السياسي الداخلي، من قتل الحريات، والقمع المستمر ... الخ)

ضمن هذه الأسباب، يبدو أن تحرك الجماهير أمر معقول، ومشروع إلا أن لهذه العملية وجه آخر، وهو سلبي، وقاتم، وخاصة عندما نقف عند الجماهير في تحركها الغوغائى، والمدمر، وعندما تحركها في الأفكار المتطرفة والأوهام، والأساطير، والخرافات، والعصبيات العرقية، والقومية والدينية والطوباويات، ذات الطابع الديني كالمهدى المنتظر، والإمام المنتظر، والكارزمي كالزعيم الأوحد والقائد الملهم، والمرشد، والمعلم ... الخ .

اللامعقول في فكر وحياة الجماهير(١٣٢):

درس علم النفس الاجتماعي لا وعي، أو العقل الباطن للجماهير، أو اللاشعور الجمعي وتحدث عنها قبلاً، الفلاسفة القدماء،والمحدثون، ولكن قبل هذه الدراسات لعلم النفس الاجتماعي ظهرت بوادر جادة، واجتهادات عميقة في النظر لعقلية الجماهير، فحسب ما يعرف

صاحب هذه السطور، كان أول من كرس كتاباً يحلل فيه نفسية الجماهير الفرنسي "غوستاف لوبون" حيث وضع كتابه الشهير "سيكولوجيا الجماهير"(١٨٩٥)(١٣٣).

وُجهت انتقادات كثيرة عند صدور الكتاب، إلى مضامينه. واتهمته الاتجاهات التقدمية والثورية آنذاك بأنه يتحامل على الجماهير، ويحتقدها بناء على بواعث عقلية برجوازية (براجماتية).

تتلخص آراء (لوبون) في سيكولوجية الجماهير في أن هذه الأخيرة لا عقلية بالتعريف: وأنها "مجنونة بطبيعتها، فهي تصفق في حماسة شديدة لمطربها المفضل، وفريق كرة القدم المفضل، وتعيش لحظات هوس وجنون وهيجان في تشجيعها لهذا أو ذاك، وهي تصطف على جانبي الطريق ساعات، وساعات كي تشهد من بعيد عبور شخصية مشهورة، أو زعيم كبير، ولو كان الأمر للحظات خاطفة مجنونة.

الجماهير المهتاجة التي تهاجم شخصا كي تزيحه دون أن تتأكد من أنه هو المذنب حقا، هي مجنونة أيضا، وإذا ما أحبت الجماهير دينا، أو رجلا، تبعته حتى الموت، كما يفعل اليهود في دينهم، والمسيحيون وراء رهبانهم والمسلمون وراء شيوخهم وأئمتهم.

الجماهير يمكن أن تحرق اليوم، وتعدم ما كانت قد عبدته بالأمس، وتغير أفكارها (ويتم غسل أدمغتها بواسطة وسائل الإعلام وتقنياته المعاصرة) كما تغير قمصانها وأحذيتها -وهذه الأعمال المتطرفة لا تنتمي إلى العقل بأي شكل من الأشكال" (١٣٤).

يتكون للجماهير وجدان خاص أثناء تجمعهم، حول أمرها، ويحرك هذا الوجدان اللاوعي وعندما يتحرك هذا اللاوجدان لا توجد قوة في العالم يوقف حركتها اللامعقولة، وكذلك لا تحتاج في هذه

اللحظات المطلقة إلى الحاجات العقلية والمنطقية الإقناعية، إن الفـــرد وهو خارج نطاق المجموع، قد يتحرك بقوة معقولة وبشكل واع، أمـا عندما ينخرط في الحركة الجماهيرية يفقد اللحظة العقلية، وبمجرد أن يتجمهر يتحرك بشكل لا واع: والوعي فردي بطبيعته، أما اللاوعـــي فهو جماعي، أو جمعي كما يرى "غوستاف يونغ" في علـــم النفــس الاجتماعي .

يفتقد الجمهور إلى التفكير الناقد لحظات هيجانه، ويفتقد المحاكمة العادلة والإحساس السليم الذي يتطلب النظر المجرد من الأهواء.

وخلاصة هذا الموضوع :"إن القاعدة التي ترتكز عليـــها عقليـــة الجماهير هي قاعدة سيكولوجية لا عقلية، ولا منطقية، ولا برهانيـــة إقناعية، وهذه السيكولوجية تشكل بنية العقلية الجماهيرية"(١٣٥).

التحليل النفسي لتحرك الجماهير

انصبت بعض أعمال العالم النفسي الشهير "سيجموند فرويد" على كشف الأهمية الكبرى للدور الذي يلعبه "اللاشعور" أو العقل الباطن في تحريك الفرد، والمجتمع وسلوكهما، ويرى أن الجماهير عموما تتحرك لحظة تجمعها تحت تأثير نوع من الهستيريا وراء شخصيات "خارقة" يدفعها إلى ذلك اللاوعي، وصمت العقل الواعي ويحركها الهوس وخاصة الطقوس الدينية، والعقائد، والأيديولوجيات، وقد طرح فرويد بعض التساؤلات حول ظاهرة الجماهير، وكيف تتحرك، وتهتاج، وبالتالي كيف تلعب دورا كبيرا في حركة التاريخ، فقد كانت، مثلا، الجماهير النازية (في ألمانيا)، والفاشية (في إيطاليا) أمامه في طور التحضير، والتهيئة"(١٣٦).

والواقع إن من يرى بعض الأفلام السينمائية الوثائقية عن الحرب العالمية الثانية في أوروبا يهاله مشاهد الآلاف المؤلفة التي كانت تهتف بهلوسة وجنون كامل، لشخصيات رعناء كـ "هتلر" و"موسوليني" وتدفع هذه الجماهير بصياحها الذي يعانق السماء بزعمائها المهووسين لتدمير الأعداء الذين يعيقون تقدم الجنود الغزاة، حيث تفكر هذه الأدمغة المغسولة والمهتاجة لحظة واحدة في سحق الأبرياء ،والشيوخ، والأطفال والنساء، والأخضر واليابس وزرع جثث القتلى في كل مكان .

إن علم النفس الاجتماعي، والذي قام بالغوص فيه "غوستاف يونغ" كان قد درس مسألة الجاذبية الساحرة التي يمارس بعض الأفراد القادة، أو الدكتاتوريين على الجماهير، والشعوب، ويفيدنا هذا العلم، كما يرى مترجم كتاب "لوبون" في إضاءة عقولنا في تفسيره لنا جذور تصرفاتنا العمياء والأسباب التي تدفعنا إلى الانخراط في

جمهور ما، والحماسة الشديدة للزعيم فلا نعي ما فعلناه إلا بعد أن نستفيق من الغيبوبة، وربما جعلنا ذلك نندفع حيطة، وحذرا في الانبطاح أمام زعيم جديد قد يظهر"(١٣٦) مكرر. لنتأمل ظاهرة الشخصيات الكاريزمية وتحليلها في العصر الحديث من قبل علماء النفس والاجتماع .

لقد وجد "يونغ" أن اللاشعور الجمعي يلعب دورا كبيرا في حياة الفرد والمجتمع، ومن المفيد أيضا لمن يريد الاستزادة في هذا الموضوع، الاطلاع على دور الأسطورة، والرمز في تحريك الفكر الإنساني، لدى "يونغ" وكذلك دور الأسطورة في تحريك الجماهير.

أما اورتيغادى غاسيه فيرى أن الزحف اللاعقلي للجماهير يشكل خطرا على الحضارة، إذ أن الجماهير لا معايير عقلية لها، ولا ثقافة في فكرها، وترفض أن تبدى أسبابا لما ترتئيه، وتفرض ما تراه بالعين، لا بالعقل، أن لها الحق ألا تكون عقلية، ومنطقية، بل تبدى سخرية عظيمة إزاء معايير المنطق والعقل(١٣٧).

لقد وضع الألماني "فلهلهم رايش" كتابا ملفتا للنظر تحت عنوان: اسمع أيها الإنسان الضئيل (القميء) ويقصد بالإنسان الضئيل رجل الجمهور و رجل الشارع، ويرى أن الجماهير كانت مسؤولة عن خلق شخصية "هتلر"، والخضوع له، كما كانت هي أيضا المسؤولة عن قتل الفيلسوف سقراط. يقول "رايش" مخاطبا الإنسان الضئيل: "أنت قتلت سقراط، إذ اتهمته بأنه يحط من شأن أخلاقك الخيرة، ولكن سقراط، أيها الإنسان الضئيل، مازال يحط من شأن هذه الأخلاق، وأنت قتلت جسم "سقراط" ولكنك عجزت عن قتل عقله، وأنت تواصل عملية القتل، ولكنك تقتل بأسلوب خسيس وخداع"(١٣٨).

يرى الدكتور "مراد وهبة"، مخالفا آراء "اورتيغادي غاسيه" ورايش بأن رجل الشارع، أو الإنسان الجماهيري في القرن العشرين

هو من أفرز الثورة العلمية، والتكنولوجية، فهذه الثورة أفرزت ظاهرة يمكن تسميتها بظاهرة الجماهير .

وتلعب وسائل الاتصال الجماهيرية دورها في تشكيل وعي، ولا وعي الجماهير .

الواقع ليست الثورة العلمية، ولا وسائل الإعلام وحدهما المسؤولان عن تشكيل عقلية الجماهير وتحريكها، بل إن أوضاع الجماهير الاقتصادية، والسياسية والثقافية، التي تعيقها في حال سوء هذه الأوضاع، عن تحكيم وعيها وعقلها.

ولقد لعبت العقائد الدينية، الأيديولوجيات الإنسانية في تشكيل (دوغما) جماهيرية. وخلقت هذه الأديان والعقائد والأيديولوجيات إيمانا دوغميا بالنصوص، والمتون، وسلطتها، وتكونت بذلك عقلية جماهيرية.

أخيرا، لقد تناول "رايت ميلز" مصطلحي مجتمع جماهيري، ووسائل اتصال جماهيرية، فرأى أن المجتمع الجماهيري يتلقى من وسائل الإعلام الجماهيرية كل ما يعتقده ويراه، بحيث يستحيل على الفرد أن يكون له أي تأثير، وأن تشكيل الرأي العام محكوم بسلطات تتحكم في القنوات التي يراد فيها الرأي العام أن يتشكل في صيغة معينة، ومن ثم فالجماهير ليست مستقلة عن المؤسسات، بل إن ممثلي هذه المؤسسات يخترقون الجماهير، ويضعفون أية بادرة استقلالية في تشكيل الرأي العام"(١٣٩).

لا نميل من جهتنا إلى التركيز على عامل واحد، أو اثنين في تشكيل "عقل الجماهير" وتفكيرها، والمسألة أعقد من ذلك بكثير، فكل مجتمع يصيغ جماهيره على شاكلته، فالجماعات العربية، تشكل وعيها، أو تشكلت آلية تفكيرها من عوامل عدة، ذكرنا تفصيلا، في

مقال سابق في صحيفة الخليج (٢٠٠٠/٧/٢٣)(١٤٠)، عوامل صناعة هذه الآلية بخصوصيتها العربية.

الخلاصة:

إننا لا نعفي الجماهير من المسؤولية في حالة الانقياد، وعدم إعمال العقل في الأمور العامة، وكما أن جماهيرنا أو جماعاتنا (الموزايكية) بحفاظ كل جماعة منها على مقدساتها، وتراثها الأصفر، دون إعادة نظر وقراءات علمية ناقدة، تشكل خطرا على حياتنا الحاضرة والمستقبلية أشد خطرا من السلطات السياسية، والأيديولوجية الرسمية، ومع الأسف، كثيرا ما تمالئ السلطات السياسية، للحفاظ على بقائها، عقول الجماهير، وتتبنى أفكارها بطرقها الخاصة، والنتيجة تواطؤ الجميع على حساب التقدم، الضحية الكبرى، فيزداد العمى، والاستلاب، وتستمر الحضارة المعاصرة في هيمنتها على وجودنا مقابل اجترارنا لما هو ماض عتيق .

هوامش

١) عن ملحق صحيفة اللوموند الفرنســـية (ملفـــات ووثـــائق) نوفمبر ١٩٨٤ .

١م)/ هـــ . فرانكفورت وآخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمــــة جـــبرا ابراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية -بيروت ، ١٩٨٢، ص٢١.

٢) مرسيا إلياد، مظاهر (تجليات) الأسطورة عن :

5 o Mots de la culture generale contemporaine coll, marabout, 1999, Article: My the.

٣) م.س.ص١١.

٤) انظر مثلا:

٥) يدعو إدوار دي بونـو Ed .De Bono " "أحـــد المشتغليـــن المشاهير في (تعليم التفكير، والتفكير الناقد، والإبداعي) الفلاســفة المذكورين بعصابة " الثلاثة " الفلسفية التى شلت قدرتنـــا علـــى التفكير .

٦) د . مراد وهبة، مدخل إلى التنوير. دار العالم الثال، دار النهج الجديد -مصر -الكويت، ط١، ١٩٩٤، ص ٩٥ . 96 -

٧) Paul Pou Pord . Les Religions . coll pne sais – je – no 90 . p. V.F . 1994 . p . 94.

٨) انظر كذلك :

La Pensee Juive , Armand Abecassis Tome . livre de poche . (Es – sais) .
Libraire Generale Frangaise.parise, 1987. p . 319.

٩)د . محمد عابد الجابرى -تكوين العقل العربى (فصل العقـــل المستقبل) -دار الطليعة -بيروت، ط٣، ١٩٨٥، ص١٩٤.

١٠)م.س. ص١٩٧، وما بعد.

١١)انظر مقالنا (بؤس الفلسفة في التاث الفكـــري العربـــي) جريـــدة الخليج (حلقتان) ١٥،٨/٥/١٩٩٥م .

١٢)م.س.
١٣)الأقواس من وضع صاحب السطور، في عام(١٢٧٠م) أصـــدر مطران باريس فتواه بإدانة أفكار الفلاسفة العرب، ومتتبعيـــهم مـــن الفلاسفة الفرنسيين. انظر محمد أركون. قضايا في نقد الفكر الدينـــي. دار الطليعة- بيروت ٩٨. ص١٤.
١٤)القوس من وضع صاحب السطور
١٥)القوس من وضع صاحب السطور
١٦)الغريب أن يلحق الدكتور حسن حنفي هذه الأفكار الأفلاطونية في المدينة الفاضلة (في كتابه الجمهورية) حين يجعل الفيلســـوف مـــن الحاكم، وصاحب السلطة، كائنا مفكرا (فيلسوفا) أي يعمـــل عقلـــه، ويضعه في أولوية الحكم، وصناعة القرار، عوضا عـــن أن تكـــون الأهواء والانفعالات والأمزجة الشخصية هي التي تكمن في صميـــم القرار السياسي في العالم العربي الإسلامي، وهو ما صنعته الســـلطة السياسية منذ أيام الخلفاء، وأمراء المؤمنين، والسلاطين، والملـــوك، ورؤساء الجمهورية...الخ.
١٧)القوس من وضع صاحب السطور.
١٨)د.حسن حنفي، دراسات فلسفية (في الفكر الإسلامي المعـــاصر) ط٢،دار التنوير بيروت-القاهرة ١٩٩٥م. ص٥٣، ٥٤، انظر كذلـــك فصل اللامعقول في (المعقول واللامعقول في تراثنا) د.زكي نجيـــب محمود. دار الشروق. بيروت١٩٨٥م.
١٩)كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ترجمـــة شـــوقي جـــلال، سلسلة عالم المعرفة- الكويت، ط١،١٩٨٤، ص١٢٤.
٢٠)القوس من وضع صاحب الأوراق.
٢١)كرين برنتون، تشكيل العقل الحديث، مصدر مذكـــور. ص٢١٥، ٢٦١ (بتلخيص شديد).
٢٢)م.س. صفحات٢٦٢، ٣٠٤.
٢٣)م.س. ص٣١٣.
٢٤)د.حسن حنفي، دراسات، مصدر مذكور سابقا ص١٦٢.
٢٥)د.نصر حامد أبو زيد، النص, السلطة، الحقيقة، المركز الثقـــافي

العربي، الدار البيضاء -بيروتط١،١٩٩٥، ص٥٢.

٢٦)م.س. ص٣٤، ٣٧.

٢٧)انظر تفصيلات حول التفكير الأسطوري، والسحري، أعمال جيمس فريزر في(الغصن الذهبي)، والكتاب المعني مباشرة بالأساطير أو التفكير الأسطوري في مصر، وبلاد الرافدين. كتاب هـ.فرانكفورت وزملائه (ما قبل الفلسفة) م.مذكور سابقاً.

٢٨)يمكن أن نضيف ذكر أحداث تاريخية أخرى حتى بداية التسعينيات.

*حرب السويس (١٩٥٦)، الحرب العربية الإسرائيلية (١٩٦٧)، حرب أكتوبر (١٩٧٣)

*الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥- ١٩٩٠) الثورة الإيرانية (١٩٧٩). تعتبر هذه الأحداث إقليمية، ولم يكن لها مضاعفات على الخريطة العالمية.

٢٩)حنا عبود، الثقافة والنقد في مائة عام -نظرة نقدية- الخليج الثقافي ٢٠٠٠/١/٢٤م.

٣٠) م.س.

٣١) م.س.

٣٢) م.س.

٣٣) م.س.

٣٤) ahammed Arkoun, la pense Arabe coll. Que sais –je no q 15, p107

٣٥)من الناحية التاريخية ترجع أسلمة المسلمين لما يحبونه من الآخر, (معرفة، وتقنية) إلى عصر الفتوحات الإسلامية، وتحويل الكنائس المسيحية إلى مساجد، حيث عمل المسلمون على الحفاظ على هياكل الكنيسة القديمة، ووضعوا عبارات إسلامية في داخلها، انظر مثالاً قريباً (مسجد

الصخرة) في القدس، ومساجد أيا صوفيا في اسطنبول والتي كانت في الأصل كنائس مسيحية.
وقد ارتقت هذه الأسلمة إلى بعض علوم الأوائل التي نقلها المسلمون من التراث الهندي، والفارسي، واليوناني حيث أسبغ المسلمون على بعض هذه الآثار آيات الإيمان الإسلامي وفهموا الفلاسفة الوثنيين على أنهم كانوا يؤمنون بالله قبل أن يدركهم الإسلام. (انظر عبارات من قبيل:
"أفلاطون الإلهي" و"الشيخ اليوناني" أفلوطين...الخ، إن عقلية تحويل الرموز الدينية لصالح العقيدة الأيديولوجية المنتصرة تبدو كذلك لدى اليهود، ففي مادة خبرية كتبت صحيفة الخليج في 24/3/2000م ما يلي: الإسرائيليون يحولون مساجد ومقامات إسلامية إلى كنس، ومصليات يهودية في فلسطين.
٣٦)أورد الأستاذ عزيز العظمة في هامش ص٥٣، في كتاب: دنيا الدين في حاضر العرب ط. دار الطليعة، بيروت ١٩٩٦م ((إلى منشورات المعهد العالمي للفكري الإسلامي ١٩٩١م، لعماد الدين خليل، ومخطط عمل المعهد ١٩٨٩م، ومنهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ١٩٩١م، لمحمد مزيان، وصياغة العلوم الاجتماعية صياغة إسلامية، ١٩٨٩، لإسماعيل الفاروقي، ومعالم المنهج الإسلامي، ١٩٩١م لمحمد عمارة...الخ.
٣٧)م.س.ص٥٣.
٣٨)إن المشروع الحضاري، لايصاغ بعبارات شعاراتية، ولا يُتصور حسب مجموعة من المقولات الذهنية، ولا يتم بناء على إجماع بعض المفكرين العرب أو الإسلاميين ضمن ندوات، ومؤتمرات أو محاضرات أو نقاشات مشتركة. إن المشروع يبنى تراكمياً في البنى التحتية، والقومية، وبعد هذه العملية التراكمية يصوغه المفكرون فلسفة، أو بعبارة أخرى إنه ((الخلاصة الفكرية)) لمشروع تمت صناعته. إنه نتيجة جهود أجيال من العلماء والمفكرين، والفلاسفة والشعراء، والأدباء، ورجال الاقتصاد والصناعة...الخ "انظر مشروع الحضارة العربية، الذي بدأ منذ القرن الخامس عشر وهو لايزال

مستمراً حتى أيامنا".

٣٩) م.س.ص٥٣، وما بعد.

٤٠)د.نصر حامد أبوزيد، النص، السلطة الحقيقية، مصدر مذكور.ص٤١.

٤١)عزيز العظمة، مصدر سابق ص٥٤.

٤٢)د.أحمد جدي، الفكر العربي والمستقبل، مدخل إشكالي ومنهجي، مجلة الوحدة، العدد ٨١، يونيو ١٩٩١م. ص٩٢.

٤٣)يرى الكاتب خيري منصور في زاويته اليومية في صحيفة الخليج، الشارقة،- وهو على حق- أنه على امتداد التاريخ الإنسلني، ومنه التاريخ العربي، كان العقل مطلوباً Wanted خصوصاً حين يتجاوز المرحلة الابتدائية القائمة على التلقين، والامتصاص. الخليج ٢٣/١٠/١٩٩٩م.

وبتعبير آخر، يُطلب العقل حياً أم ميتاً عندما يجاوز النصوص والمتون الإيديولوجية.

٤٤)إن مصادرة الرأي الحر شفوياً كان أم مكتوباً ليس قصراً على حضارتنا العربية الإسلامية صاحبة النص، بل ينسحب هذا الموضوع على كل حضارة أو مجتمع نصي إيديولوجي، حيث يمنع مثل هذا المجتمع كل ما هو مضاد للمتون وشروطها وتفسيراتها، وفي أحسن حالات هذه المجتمعات المتونية، تتحفظ أمام "إبداء الملاحظات السلبية على النصوص والمتون".

كتبت صحيفة الخليج تحت عنوان (موسوعة الأعمال المصادرة) أن كثيراً من عيون الأدب العالمي منعت، ولاتزال ممنوعة في الغرب المتحضر، وقد رصد الدكتور رمسيس عوض هذه الانتهاكات الغربية لحقوق الإنسان وجمعها في (موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة في العالم)، والموسوعة تتناول الأعمال المصادرة جميعها سواء كانت شعراً أم رواية أم مسرحاً أم نحتاً ورسماً وتصويراً أوسينما، وبالفعل تُصيبنا الدهشة عندما نجد أن عيون الأدب العالمي تعرضت في وقت أو آخر إلى المصادرة مثل أعمال شكسبير، وميلتون، وجيمس

جويس، وكانت، وروسو، وهوبز، ولوك....(عن الخليج-استراحة- ٢٠٠٠/١/١٤.

٤٥)خيري منصور، الخليج ١٩٩٩/٣/٢٥.

٤٦)جريدة الخليج ٩٩/١٠/١١، ٢٣، ٢٠٠٠/١/٢٤م.

٤٧)إذا كان المصدران يختلفان بالطبيعة لا بالدرجة، فلا يعني أنهما نقيضان، أو متضادان ولا يعني كذلك أن ينفي أحدهما الآخر، بل إن التقدم يقتضي، إجرائياً، الفصل بينهما فصلاً تاماً.

٤٨)د.أحمد جدي، الفكر العربي والمستقبل، مدخل إشكالي ومنهجي، مجلة الوحدة، عدد ٨١، يونيو ١٩٩١، ص٩٢.

في ندوة حول مستقبل الفلسفة عقدت في القاهرة ٢٠٠٠/٣/٥م، يقول الدكتور محمود أمين العالم: ((إننا نعيش بفكر ملتبس نتيجة لواقع ملتبس))، ويقول: ((منذ الحملة الفرنسية على مصر ونحن نعيش بعين ثقافة الوافد الأجنبي، وبين الفكر التراثي القديم، ومن هنا نشأ الفكر التوفيقي بين الوافد والفكر)).

٤٩)انظر مقالنا في الخليج الثقافي ١٩٩٩/٨/٢٣.

٥٠)م.س.

٥١)انظر مثلاً كتابه: "الفكر الإسلامي" قراءة علمية، كتب أركون معبراً عن فكره بحرية كاملة تحت تأثير عاملين مهمين:

١-كون "أركون" يعيش وسط جو فرنسي ليبرالي في العمل الكتابي.

٢-كون المذكور، يكتب عن عالم فكري آخر"لا يعني أو لايمس الفرنسيين، ولا وسطهم الثقافي فلم تواجه كتاباته رداً أو نقداً. قبولاً أو رفضاً، وقد ظلت محصورة ضمن أجواء المعنيين بالثقافة العربية الإسلامية، وأجواء الاستشراق، وقد وقف المثقفون العرب متأخرين على بعض أعماله، من خلال ترجمة هذه الأعمال بقلم أكبر تلاميذه الأستاذ "هاشم صالح".

ومن ناحية ثانية يُستشف من كتابات "أركون" سعة ثقافته في العلوم الإنسانية (وهو متخصص في التاريخ) يعاني فكر أركون من فقر في الثقافة الفلسفية.

٥٢)الدكتور محمد جابر الأنصاري. الفكر العربي وصراع الأضداد،

تشخيص حالة ألاً حسم في الحياة العربية، بيروت عمان. ١٩٥٦م.
٥٣)العددان الثالث والرابع -يناير،مارس، إبريل، يونيو١٩٩٨م.
٥٤)المصدر السابق ص٢٣١.
٥٥)قول الدكتور عباس مأخوذ من:مجلة الثقافة العربية، بيروت ١٩٧٣م ص١٠٣.
٥٦)انظر بحثنا: التناقض الوجداني في الشخصية العربية المعاصرة.ط.دار الحوار، اللاذقية -سورية ط.١ ،١٩٩٢م.
٥٧)م.س. ص٢٢٩.
٥٨)م.س. ص٢٣٢.
٥٩)م.س. ص٢٢٨، انظر مثلاً: اشتراكية الإسلام، لمصطفى السباعي، الديمقراطية في الإسلام للعقاد..
لقد أورد الدكتور الأنصاري مستشهداً على هذا التراجع أمام التفكير التقليدي ما قاله أحد ممثلي الاتجاه الحداثوي (التغريبي) صادق جلال العظم في كتابه نقد الفكر الديني.
في مراجعة جديدة لتجربته أن تقديرات التحديث والعلمنة بمعزل عن الدين في تأثيره الاجتماعي كانت تقديرات فيها قدر كبير من التبسيط، والفجاجة والتفاؤل الذي لم يكن في محله. م.س. ص٢٢٨.
٦٠)أدونيس (علي أحمد سعيد)، الثابت والمتحول، ج١ ص٣١، بيروت،دار العودة.
٦١)كذلك كان الأمر عندما نقل المسلمون من التراث اليوناني (علوم الأوائل) إلى الثقافة العربية، حيث كانت هذه الأخيرة تحتاج الطب، الهندسة، والرياضيات، كما أنها كانت تحتاج إلى إدوات العقل والمنطق للدفاع بواسطتهما ضد الزندقة، والفرق المناوئة للعقيدة الإسلامية، وضد النزعات المانوية، والشعوبية، والملاحدة....الخ.
٦٢)د.محمد جابر الأنصاري، م.س.ص٢٣٦، ويلتقي مع أدونيس في هذه النقطة، انظر هامش (٦٠).
٦٣)د.نصر حامد أبوزيد، النص السلطة، الحقيقة، ط المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٥. ص٣٠.
٦٤)في كتابنا (التفكير العربي المعاصر ومقولة سقوط الغرب) ط

المركز العربي للكتاب، بيروت ١٩٩٤ أورد الكاتب نصـــاً لبعـض علماء اليمن، والذي يعكس العقلية التفاضلية القائمة علـــى تفضيـل النقل، قول هؤلاء أن "الكفار" أصحاب علوم الغرب وتقنياتـــهم قـد سخرهم الله لتحقيق اكتشافاتهم واختراعاتهم العلمية خدمة للمســلمين، وأن هؤلاء عليهم التفرغ لعبادة الله، انظر مقدمة الكتـــاب المذكـور (الهوامش).

٦٥)انظر تعليق الدكتور زكريا على بحث الدكتور الأنصـــاري فـي مجلة عالم الفكر، مصدر مذكور أعلاه.

٦٦)د.نصر حامد أبوزيد، النص، الحقيقة، السلطة، مصدر مذكـور، ص٥٢.

٦٧)انظر (التفكير الأسطوري) جريدة الخليج..لكاتب السطور.

٦٨)انظر عرضاً لترجمة الكتاب في صحيفـــة الخليـــج، (الملحـق) ١٩٩٩/١١/٢٦م. يذكر في هذا النطاق أمثلة معاصرة عـــن تـأثير التفكير الأسطوري في الفكر الإنساني (نظرة مليارنسمة على ســطح الكرة الأرضية لحادثة الأميرة البريطانية دايانا وجعل وسائل الإعلام من وفاتها أسطورة).

كذلك الاهتمام بحادثة كسوف الشمس، أغسطس ١٩٩٩م.

وأيضاً الاحتفال الكوني ببداية الألفية الثالثة ١٩٩٩/١٢/٣١م.

وأخيراً فإن الطقوس الدينية، ومدى تمثلها فكراً أو سلوكاً لاتخلو مـن طابع أسطوري.

٦٩) مجلة الرافد (الشارقة) سبتمبر ١٩٩٩م.

٧٠)الإشارة هنا إلى مشروع د. محمد عابد الجابري فـــي تكويـن، وبنية العقل العربي، وانطلاقه الغير مبرر في تحليل هذا العقل فـــي عصر التدوين.

٧١)فرانكفورت، وآخرون، ما قبل الفلسفة، ط١، المؤسسة العربيـــة للدراسات والنشر ط٣، ١٩٨٢م.ص١٩.

٧٢) م.س. ص٢٣، فصل كـــاتب الســطور، موضـــوع: رواســب أسطورية في المجتمعات المعاصرة (الخليج).

٧٣) م.س.ص٢٤. انظـــر كذلـــك (التفكـــير الأســطوري) جريـــدة

الخليج(٧٤)م.س. فرانكفورت وآخرون ص١٧.
٧٥) إن حادث سيارة الأميرة البريطانية "دايانا" يفسر كغيره من الحوادث المرورية، إذ أن له سبباً، ونتج عن الحادث، ولكن الحادث اكتسى طابعاً أسطورياً، إذ أن موت الأميرة، كان يمكن أن يكون كأي حادث مميت آخر، ولكن لكون صاحبة الحادث الأميرة فقد انقلب إلى أسطورة، بما نتج عنه من موت، وجنازة، وما أعقب ذلك من هيجان وسائل الإعلام العالمية، إذ تحدثت هذه الوسائل عن مشاهدة أكثر من مليار نسمة لجنازة الأميرة على شاشات التلفزيون.
الواقع إن الشخصيات المشهورة على كافة الأصعدة، وخاصة السياسية والعسكرية والشعرية عندما يداهمها الموت، ينقلب اختفاؤها إلى أسطورة سواء أثناء حادث الموت أو ما بعده بزمن.
يحلو لبعض المؤسسات و الشركات الاستهلاكية ودور الأزياء والعطور الحديث عن بضاعتهم الأسطورية.

٧٦) وصف الإمام الخميني "مرشد الثورة الإيرانية" أمريكا بالشيطان الأكبر، وكان الرئيس الأمريكي الأسبق "رونالد ريجان" يصف الاتحاد السوفيتي الشيوعي بـ"الشيطان الأكبر" وقد وردت كلمة شياطين على لسان الرئيس الأمريكي الحالي "بيل كلينتون" وذلك في حفل إفطار حضره أربعة آلاف شخص، حيث نشرت صحيفة الخليج مادة خبرية تحت عنوان (الشياطين) يحمل الرئيس مسؤولية فشل جهود السلام في الشرق الأوسط، فلم يجد الرئيس الأمريكي تفسيراً لهذا الفشل سوى القول أن الشياطين هم السبب ، الخليج ٢٠٠٠/٢/٥.
وأضاف الرئيس قائلا: ((إن جهود السلام في الشرق الأوسط،، وأيرلندا الشمالية تعاني من إقدام شياطين المجتمع، وهي عدم القدرة على حب جيراننا كأنفسنا، إذا بدوا مختلفين، أو تعبدوا بطريقة مختلفة)).
في الفرنسية مازال الفرنسيون، وخاصة في الأوساط الأكاديمية يستخدمون عبارة "مُدَافع الشيطان" Avoct du Diable. .
ويمكن ملاحظة تأثير فكرة الشيطان في مفردات الحياة اليومية في

أمريكا، فقد نقلت صحيفة الخليج في صفحتها الأخيرة مـــادة طريفـــة جاء فيها ((حيث لاتنفع الترسانة النووية، وحيث القدر يرسم المصير -ظاهرة الشيطان تهدد أمريكا بالدمار)) وتفصيل ذلـــك مـــا يلـــي: ((أشعل العلماء في الولايات المتحدة الأمريكيـــة الضـــوء الأحمـــر، وأعلنوا أن الولايات المتحدة على وشك أن تشهد ظاهرة مناخية أكثر وأخطر تدميراً من النينا، وأطلق العلماء على هذه الظواهر المرتقبـــة التي لم يشهد العالم لها مثيلاً في تاريخه حتى الآن اسم ظاهرة الديـــا بولو (الشيطان)، وقال عالم الأرصاد الجوية "مارتن بانوك" لـــو أن الشيطان نفسه خرج من أعمق أعماق الجحيم، وأطلق كـــل شـــروره على العالم، فإن النتيجة لن تكون أكثر سوءاً من التدمير الذي ستحدثه ظاهرة الديا بولوس..)) الخليج ٢٩/٤/٢٠٠٠م.

ولا يخفى للجميع استخدام الناس في مختلـــف المجتمعـــات العربيـــة والإسلامية لمفردات دينية في الحياة اليومية، مما يعكس نمط التفكير الديني من قبيل ((إن شاء الله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، وبســـم الله، والحمد لله)) كذلك التغطيات والمظلات القرآنيـــة فـــي الاحتفـــالات، والمهرجانات والحفلات الرسمية، والخاصة... والافتتاحيات الرسمية ، الورقية المكتبية في دوائر الدولة والمؤسسات ، واليافطـــات، فـــي المحلات والمعـــارض والقاعـــات والأبـــواب وحفـــلات الأعـــراس والخطوبة والزواج.....الخ.

٧٧) سيد محمود القمني، الأسطورة والتراث ط ٢، دار سينا للنشـــر ١٩٩٢م ص٣١ لايخلو هذا الكتاب من أهمية، خاصة في مناقشة مدى تغلغل التفكير الأسطوري في تراثنا، ويمكن الاستزادة في معرفة هذا الموضوع بالاطلاع على كتاب إبراهيم بـــدران، وســـلوى خمـــاش (دراسات في العقلية العربية -الخرافة- دار الحقيقة بـــيروت. ط ٢. ١٩٧٩م. بدءاً من صفحة ٧٤، وما بعد.

٧٨) د. أبوزيد، مصدر مذكور، ١٩، ٢٠.

٧٩) مكرر، يقول الدكتور نصر حامد أبوزيـــد فـــي هـــذا الصـــدد: ((للخطاب الديني تأثيره الذي لايمكن تجاهله، أو إنكاره في تشـــكيل

بنية الوعي، ليس لدى المواطن العادي، بل -وهذا هو الأخطر- لدى عدد لايستهان به من الصفوة المثقفة والمتعلمة، والمؤثرة في مجالات الإعلام والتربية والتعليم بصفة خاصة)) د. أبوزيد، مصدر مذكور. ص٩٢. وانظر كتابنا (التفكير الاستراتيجي وحدود الإبداع في الثقافة العربية) ط دار عمون ، الأردن ٢٠٠٠م.

٨٠) د.سمير نعيم أحمد (المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطوف الديني) في كتاب الدين في المجتمع العربي، ندوة، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، والجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت ط١، ١٩٩٠م ص٢٧٨.

٨١) د.الشيخ محمد علي الجوزو، مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، ط٢. دار العلم للملايين، ١٩٨٣م، بيروت.ص٢٤.

٨٢) م.س. ص٢٥.

٨٣) انظر كتابنا (دراسات في التفكير العربي -القاع الشعري)، نشر مركز الكتاب العربي، بيروت.

٨٤) د.الجوزو، مصدر مذكور، الفصل المتعلق بالعقل في القرآن.

٨٥) م.س. ص٥٣، ٥٣ و(العقل في القرآن) ص٥٥ وما بعد.

٨٦) د.هشام شرابي -الإسلام والحداثة- ندوة ومواقف، دار الساقي -لندن ١٩٩٠م ص٣٧٣. من وجهة النظر السيكولوجية التحليلية، انظر أعمال فرويد حول الصراع بين الأب والابن، وجهة النظر الاجتماعية، والانثروبولوجية، مرت المجتمعات الإنسانية منذ أقدم العصور بمراحل المجتمع الأُمُومي، حيث كانت الأم مركز السلطة في الأسرة ثم المرحلة الأبوية، حيث حل الأب محل الأم لتصبح المجتمعات أبوية السلطة، ومن ناحية ثانية، إن ثقافتنا العربية والإسلامية تؤكد على الدور المركزي لسلطة الأب، وكونه رب البيت، ورب الأسرة، وراعيها، كما هو معروف. في رواية حديثة علّق عليها الدكتور عبدالرازق عيد في صحيفة البيان (بيان الكتب) ٢٠٠٠/٢/٢١م يستحضر بطل الرواية (زهور كافكا) سلطة الأب في أجواء شاحبة، يتداخل فيها الحلم بالواقع، وبذلك تمكنت القصة من

تقديم هجائية مكتوبة بالألم تجاه واقع تنحدر فيه القيم الإنسانية إلى الحضيض، من خلال استعادة صورة المجتمع الأبوي (البطريركي) الذي تتعمق سلطته لتتجاوز حدود السلطة على العائلة، والأبناء لتصل إلى مستوى المعادل المجازي لكل أشكال السلطة القاهرة، القامعة للإنسان روحياً ووجدانياً، وسياسياً ووطنياً وقومياً وكونياً، التي لا يجد الإنسان ملاذاً أمام وثنية سلطانها سوى أن يتحول إلى مسخ (كافكاوي) من الروائي (كفكا) أو يختار حتفه.

٨٧) م.س. ص٣٧٢.

٨٨) م.س. ص٣٧٣.

٨٩) الحركة العقلانية في كتاب (تشكيل العقل الحديث) ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة -الكويت- رقم٨٢، ط١، ١٩٨٤م. ص١٧١.

٩٠) د.محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م. ص١٣.

٩١) م.س. ص٤٨.

٩٢) د.نصر حامد أبوزيد، مرجع سابق ص٢١.

٩٣) برتراند راسل، حكمة الغرب، ترجمة د.فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٣م. ج٢ . ص١٥١.

٩٤) نستثني الفلسفة الماركسية، ورغم كونها إيديولوجية مغلقة على ذاتها في دائرة منطقها الخاص، إلاَّ أن -لها طابعها العلمي- (الاشتراكية العلمية).

أما بالنسبة إلى الأديان الوضعية، مثال البوذية، والكنفوشيوسية، فمثلاً:

البوذيون الأطفال في هضبة التبت الصينية، أولءك المرشحون لخلافة بوذا -أو يمثلونه- يُعلمون الكتب المقدسة، واللاهوت، ويمنعونهم من دراسة أو حتى الاطلاع على كتب الفلسفة. انظر (مجلة L,Epress ، والاكسبرس الفرنسية الدولية، اسبورتاج عن بوذا الصغير في التبت.

٩٥) غوستاف لوبون، سيكولوجيا الجماهير، ترجمة عربية، بقلم هاشم صالح ط١، دار الساقي لندن، ١٩٩١م، ص١٥، ١٨.
جدير بذكره أنه، وحتى عهد الكاتب لوبون، ظل النظر إلى سيكولوجيا الجماهير يعتمد على التأملات النظرية ، والملاحظات الفكرية، ولكن عندما تأسس علم النفس الاجتماعي La Psychologie Sociale ، أخذت التوجهات في فهم عقلية الجماهير تعتمد على القواعد الخاصة بعلم المقاييس النفسية والاستفتاء، والتحريات الميدانية، والتجارب المخبرية، وحوالي عام١٩٤٠م أصبحت لهذا العلم ثلاثة تيارات:
-1التيار السلوكي Behavioriste ، أو التجريبي من حيث المنهج، والملاحظة.
-2التيار التحليلي Psychanaliste .
-3التيار المعتمد على علم الإناسة (انتولوجيا):المصدر السابق ص٧.

٩٦) م.س. ص٢٩.
٩٧) م.س.ص٥٣.
٩٨) م.س. ص٩.
٩٩) م.س. ص٩.
١٠٠) د.مراد وهبة، مدخل إلى التنوير ط. دار العلم الثالث.دار النهج الجديد، مصر ،
الكويت ١٩٩٤م ص٩١.
١٠١) م.س. ص٩٢.
١٠٢) م.س. ص ٩٣.
١٠٣) Les Aventure de la Raison, Le Monde (Dossiers Documents) No. 1984. P15. N

١٠٥) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، م. مذكور ص١٢٤.
١٠٦) د.مراد وهبة، م.س.ص١٨ .19 –

١٠٧) كرين برينتون، م.س. ص١٢٥.
١٠٨) مجلة الشروق (الشارقة) عدد٤٠٤، ٣ 9/1/2000 –م.
١٠٩) L, Express international 30/12/1999.
١١٠) بعد مضي عشرة أعوام على نهاية هذه الحرب، مازال اللبنانيون يعانون من آثارها المدمرة (انظر ما كتبته صحيفة الخليج ٢٠٠٠/٤/١٣م.
١١١) مجلة الشروق –الشارقة مصدر سابق ص٢٧. وتصيب الدول الأفريقية كوارث طبيعية، كالجفاف وقلة الموارد والتصحر، لدرجة أن تؤدي هذه الكوارث إلى موت المئات من الآلاف عطشاً وجوعاً، انظر(أثيوبيا –حيث أن ثمانية ملايين من البشر مهددون بالموت عطشاً وجوعاً –انظر المعلومات الصحفية بهذا الخصوص الأسبوع الأول من شهر إبريل ٢٠٠٠م... إن كون ثمانية ملايين من الناس مهددون بالموت لأمر مرعب ، وهو رقم يدعو الضمائر الإنسانية إلى الانتفاض غضباً، وثورة ضد التناقض الصارخ بين المترفين والمبذرين، وأولئك الذين لفظتهم الحياة، ودفعت بهم إلى الموت دون أي ذنب سوى أنهم ولدوا وسط بيئات قاسية.
١١٢) م.س. ص٢٨، ٢٩.
١١٣) م.س. ص٢٨، ٢٩.
١١٤) صحيفة الخليج . ليلى تكللا ٢٥/ ١٩٩٩/١١.
١١٥) م.س. لاتزال الكاتبة تنشر مقالاتها في الفقر والمشكلات الناجمة عنه وكذلك سبل التحرر منه، حيث سنستشهد بها، انظرصحيفة الخليج ٢٠٠٠/٤/١٤م.
١١٦) د. ليلى تكلا، (تحرير الفقراء بمشروع تنموي). صحيفة الخليج ٢٠٠٠/٢/١٨م.
١١٧) عمر عدس، (شمال وجنوب) كيف يعيش الفقير في نظام "الهيمنة" الجديد؟ نحو عالم أكثر عدلاً: الخليج٢٠٠٠/٤/١٦م.
١١٨) نميل إلى حوار الأديان عندما يهدف إلى خلق مناخ من التعايش لصالح خدمة البشر، وتحقيق سعادة المؤمنين، ولكن لدينا

انطباع بأن حوارات الأديان التي تدور في المحافل الرسمية هي من قبيل حوار الطرشان وإن سوء فهم عميق يطغى على الحوارات، حيث يمضي كل أطراف الحوار إلى غايته بعد أن ينفض الحوار.

١١٩) انظر العلاقة بين العقلانية والنظام الديمقراطي في السياسة والمجتمع، والنظام التعلمي ما كتبه "مونتسكيو" (١٦٧٩- ١٧٥٥)، وفولتير (١٦٩٤ 1778- في نقد التقييم والمعايير التقليدية، والتركيز على التسامح إزاء المعتقدات الدينية، وضرورة تغيير أسلوب حياة الناس، وكذلك "جان جاك روسو" (١٧١٢- ١٧٧٨) في التركيز على المجتمع المدني والتربية المستقلة، والتعليم في أجواء من الحرية الكاملة، وحديثه عن العقد الاجتماعي. وديدرو (١٧١٣- ١٧٨٤) ورفضه الميتافيزيقا (الغيبيات) والأخذ بعقلانية المنهج العلمي والتركيز أيضاً على العالم الراهن، وليس العالم الآخر، وتنبيهه على النتائج اللاإنسانية للآراء المتعصبة، والشعوزة الفكرية. ودي لاميتري (١٧٠٩- ١٧٥١) والاستناد إلى الملاحظة والتجربة، وهلفيستيوس (١٧١٥- ١٧٧١) وأهمية التربية، ودولباك (١٧٢٣- ١٧٨٩) الذي يفسر الشعور الديني بالخوف الخرافي والرغبة في تغيير الظروف المؤلمة، وأخيراً. كوندورسيه (١٧٤٣- ١٧٩٤) الذي وضع لوحة مهمة لتاريخ تقدم العقل الإنساني، وجون لوك (١٦٣٢- ١٧٠٤) وبحثه في أصل الأفكار واعتماد التجربة الحسية ، وديفيد هيوم (١٧١١- ١٧٧٦) واعتماده الحسي وكونه مصدر المعرفة وتكوين العقل. (انظر تواريخ الفلسفة الحديثة)، والدكتور مراد وهبة، مصدر مذكور أعلاه. ص٥٩، ٦٢.

١٢٠) لا نأخذ بالتسامح بالمعنى المطلق، أي باحتواء جميع الآراء المتباينة، وضم الاختلافات كلها إلى تفكيرنا على حساب ضياع الهوية، وثوابتنا الفكرية، بل نعني بالتسامح هو عدم التشدد، وعدم فرض الآراء أو قمعها بل تفهمها، وإيجاد أرضية مشتركة للقاء.
١٢١) كريستيان جراف فون كروكوف، مجلة فكر وفن، مصدر

مذكور ص٨.
١٢٣) نذكر على سبيل المثال الثورات العلمية على يد "كوبر نيكوس" (١٤٧٢- ١٥٤٣) و"جيدردانو برونو" (١٥٤٨- ١٦٠٠)، و"كيبلـــر" (١٥٧١- ١٦٣٠)، أما في الفلســـفة ورغـــم ازدواجيـــة "ديكـــارت" الفيلسوف الفرنسي (١٥٩٦- ١٦٣٠) في الأخذ بثقافة العقل، وثقافـــة النص، تظل أهمية ديكارت في التركـــيز الشـــديد -بالقيـــاس علـــى العصور الوسطى المسيحية- على: إعمال العقل وقد وضع مبـــادئ لهداية العقل، ومنهج التفكير العقلي.
الذين سلطوا الضوء واجتهدوا في إعمال العقل والتقدم، فـــي ثقافتنـــا التقليدية والحديثة والمعاصرة هم كثر، وخاصة أولئك الذين اشـــتغلوا في الميدان الفلسفي. نذكر على سبيل المثال:
في الثقافة العربية الإسلامية التقليدية: ابن المقفع، حنين ابن اســـحاق، ابن الراوندي، وأبو العلاء المعري (في الشعر) وفي الثقافة الفلســـفية الحديثة العربية يوسف كرم، فؤاد زكريا... وأخـــيراً محمـــد عـــابد الجابري...الخ.

١٢٤) نشر بحث هاشم صالح حول الترجمة تحت عنوان (الترجمـــة ومستقبل الفكر العربي) وذلك في كتاب (الإسلام، أوربا، الغـــرب – محمد أركون) وترجمة صالح، دار الساقي، لندن ١٩٩٥م، صفحـــات ٢٢١ وما بعد. والجدير بالذكر أن البحث المذكور كان قـــد قدمـــه صالح في الندوة بين:١٢- ١٥ آب/أغسطس١٩٩٢م.

١٢٥) لم يحدث "ديكارت" قطيعة كاملة مع فلسفة العصور الوســـطى الدينية، بل لقد احتفظ بازدواجية العقل/الدين، وقـــد فصَّـــل فلســـفته الدينية/العقلية في كتابه المشهوربـــ(التأملات) وقد ترجم إلى العربيـــة بقلم الدكتور عثمان أمين في الستينيات من القرن الماضي.

١٢٦) هاشم صالح، مصدر مذكور ص٢٢١، وما بعد.
١٢٧)م.س. ص٢٢٤.

١٢٨)م.س. ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣١، ٢٣٢.
١٢٩)م.س. ص ٢٣٢، ٢٣٣.
١٣٠)م.س. ص٢٣٤.
١٣١) على المستوى النفسي، أوالوجداني، نظن أن خوف المسلم من الالتزام المطلق بالعالم الأرضي (الحياة الدنيا)، وبناء الحياة والعمران، وعدم تغييبه لعالم الغيب من تفكيره الأرضي، تجعله هذه الآية، وكذلك مشاهد القيامة والرعب الماثل في الآيات، وأهوال البعث والنشور ، والمشي على الصراط المستقيم..الخ، تجعل المسلم يمتلئ رعباً منذ نعومة أظفاره، إزاء مقتضيات عالم الغيب، والنظر إلى الحياة الدنيا كمعبر يعبره ليصل إلى يوم القيامة بريئاً وخوفاً من ارتكاب الذنوب والمعاصي.
وبلغة معاصرة يحاول المسلم التوفيق بين مطالب العالمين . مثال ذلك أن كثيراً من الذين يرغبون بالتمتع الكامل برغد الحياة، والعيش، ورغم تعارض هذه الرغبة، وتحريمها حسب النص القرآني، إلاّ أن هؤلاء لا ينسون ابتغاء الدار الآخرة، وهذه التوفيقية التافهة، والهزيلة تجعل البعض في المجتمعات الإسلامية لا يجدون غضاضة في ارتياد المسابح للسباحة، والتعري شبه الكامل، وتعاطي المشروبات، وارتكاب المحارم، ولكن عندما يحين وقت الصلاة يذهبون إلى تأدية فريضة الصلاة ...الخ.

١٣٢) تحركت الجماهير حركتها العاقلة، وبتأثير أفكار عصر التنوير الأوربي، أي أفكار الحرية والعدالة والإخاء(الثورة الفرنسية)، وأفكار الحرية والديمقراطية وتحقيق المجتمع المدني في الثورتين البريطانية والأمريكية، (حرب الاستقلال).
وأخيراً قيام الثورة البلشفية بتأثير أفكار الاشتراكية، وتحقيق الفردوس ولكن جميع هذه الثورات لم تحقق مبادئها على المستوى الإنساني أي لم تحقق شروط الحداثة الكاملة.
١٣٣) م.س. نرجع إليه في هذا المقال.
١٣٤) لوبون –المصدر المذكور. ص٢٩.

١٣٥) م.س. ص٥٣.
١٣٦) م.س. ص٩ مكرر.
١٣٧) د.مراد وهبة- مدخل إلى التنوير ط.دار العالم الثالث-والنهج الجديد،م.س.ص٩١.
١٣٨) م.س. ص٩٢.
١٣٩) م.س. ص٩٣.
١٤٠) عبد المعطي سويد، تفكيرنا هل صالح للغد؟ (الخليج،الشارقة ٢٠٠٠/٧/٢٢).

المحتوى

